

حبنا هو الحب

لوسيف السبكي

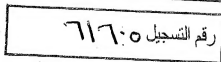
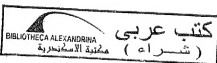


هَذَا هُوَ الْحَب

يوسف السباعي

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية



لنفسه
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

إهداء

يلائمي في الهوى ..

يا ناصحي بالتقى ..

أمسك عن لومك .. وكف عن نصحك .

أو إليك كتابي .. لتعرف بعض ما بي :

فإذا سألوك .. أصحابك مجنون ؟

فقل لهم لا ..

هذا هو الحب ...

أهوى الهوى كل ذى لب فلست ترى

إلا صحيحاً له أفعال مجنون

يوسف السباعي

جمال لا يفنى

لا يكفي لكى ينجح الرسام أن يظهر فى
صورة جمال الوجه والجسد .. أن المعجزة هى
أن يظهر جمال الروح وفرد الشعور
والاحساس

بنفسى لهفة على لقاءه ، وحنين إلى رؤيته .. فما
كانت عشقت فى حياتى فناً كما عشقته . بل ما اعتبرت أن
هناك فناً فى هذه الدنيا سواه .. كنت أنظر إلى لوحاته فلا
أصدق أنها من زيت وألوان ، وأكاد أقسم أنها من لحم ودم .. فقد
كانت تفيض بالمشاعر والمعاني ، وكم من مرة جلست أنعم البصر
فيها ، فيخيل لى أنى أسمع من الشفاه همساً ، وأحس من الأنفاس
حرارة ، ومن العيون بريقاً ، فأمد يدي لأقرن اللمس بالحنس ، فإذا
بى أفقد هذا وأفقد ذاك ، وإذا بالحياة الفياضة قد أضحت لوحات
باردة جامدة ..

كنت أنظر إلى صوره ، فإذا بها تنتزعنى من دنيائى لتحملنى إلى
دنياها .. أجل ! ما أبصرت قط صورة من صوره إلا وعشت
فيها ... فى عصرها ، وفى جوها ، بين نسائها ورجالها ، ومقاعد
وموائدها ، كنت أحس أننى لم أملك الصورة ، وإنما هى التى

ملكنتى ، وأنتى ما احتويتها فى دارى ، بل احتوتنى فى حناياها وأركانها .

كانت صورته هى ملهمنى فى الكتابة ، ومبعث الوحى عندى .. كنت أبصرها فأحيا مع أشخاصها وأتحرك معهم وأجول فى ماضيهم وحاضرهم ، وأجد نفسى مدفوعاً إلى الكتابة عنهم ... وإلى أن أجعل أبطال الصورة أبطالاً لقصة . وهكذا رأيتنى أكتب القصة للصورة ، بدلا من أن ترسم الصورة لقصة أضعها .

وكان أعجب ما فى صورة تلك الأجساد العارية التى لم تكن تخلو منها صورته ، وكان بها من فرط التشابه ما يجعلنى أجزم بأن نموذجها فى كل صورته واحد لا يتغير .. فذلك الأنف الرومانى المستقيم ، وذلك الصدر فى بروزه العجيب كأنه فاكهة ممتلئة ناضجة ، وذلك الخصر الضيق النحيل ، والأرداف المستوية والسيقان الملفوفة ، كل ذلك كان يوحى لى بأن صاحبه لم يكن سوى امرأة واحدة .

ولم أكن أعلم عن الفنان شيئا إلا أنه صاحب تلك الصور العجيبة ، حتى التقيت ذات يوم بفتاة أجنبية علمت أنها رسامة ماهرة ، فسألته عما إذا كانت تعرفه ، فرفعت لى وجهها مليئا بالدهشة لتقول :

- أعرفه ؟ إننا من بلدة واحدة ، بل إن داره لا تبعد عن دارنا إلا بضعة خطوات ، إنه أحد أولئك الذين يندر وجودهم فى هذه

الحياة ، إنه مثل من المثل العليا التي لا نراها إلا في الأوهام والأحلام ! هل رأيت شيئاً من صورته ؟

كلها تقريباً ، إنها ليست صوراً ، إنها معجزات ، فما رأيت في حياتي شيئاً يفيض بالسحر والروعة كهؤلاء النساء اللاتي أبصرهن في صورته .

وضحكت الفتاة ثم قالت :

- ماذا تراك قائلاً ، لو أبصرت بالأصل ؟

- أى أصل ؟

- الأصل الذى يلهمه فنه ! ! أو النموذج الحى الذى ينقل عنه تلك المعجزات .

- ترى من تكون الملهمة الفاتنة ؟

- إنها زوجته .

ومرت الأيام بعد ذلك ، وغادرت البلدة فى رحلة بعيدة نائية ، وفى خلال الرحلة وجدتني فى بلدة لا تبعد كثيراً عن بلدة الفنان ، وأحسست بنفسى ميلاً شديداً إلى زيارته ، فقد كان لقاءه والتحدث إليه أول الآمال التي تجيش بها نفسى .

ولم أجد خيراً من أن أكتب إليه ، أستأذنه فى هذه الزيارة ، فقد يكون بالرجل بعض شذوذ الفنانين ، وقد يكون به نفور من الناس ، فتسوء زيارتي المفاجئة ، وما كنت أرغب قط فى أن أسبب له ما يزعجه أو يضايقه .

وفى اليوم التالى وصلنى رده وشعرت بالسعادة تغمرنى لما به
من رقة وتواضع ، وكان الرجل قد كتبه بنفسه وأنبأنى فيه أنه يرحب
بزيارتى .

ولم تمض بضخ ساعات حتى كنت أقف فى المكان الذى
تواعدنا فيه على اللقاء ، حتى يقودنى إلى داره التى تقع فى أحد
أطراف البلده ، وتلفت حولى فوجدت رجلا يقبل على لم أشك
لحظة فى أنه الرجل الفنان ، بقامته الفارعة ، ورأسه الصغير ،
وملامحه الجذابة ، كأنه ملك من ملوك الأشوريين الذين يرسمهم
فى صوره ، ومددت يدي فشددت على يده بلهفة وشوق ، وقادنى
إلى عربة تنتظر لتحملنا إلى داره .

وتكلم الرجل فكان صوته موسيقياً عميقاً ، بعث إلى ذهنى كل
ما أبصرت له من صوره العجيبة ، وأحسست بشيء من الزهو
والنشوة وأنا أجلس جنباً إلى جنب بجوار ذلك الرجل الذى آنف
أن أقارنه بغيره من البشر ، فهو فى نظرى إحدى قوى الطبيعة
الخارقة كالنار والنور .

وزادت نشوتى عندما طاف بذهنى أننى سأرى النموذج
الحى ، أو كما سمته الفتاة « الأصل » .

آية امرأة تلك التى أو شك أن ألقاها وأراها مرأى العين ؟
من يصدق أننى سأبصر بتلك الساحرة الفاتنة التى كانت مجرد
صورها تبعث النشوة فى رعوسنا ؟ !

وتذكرت ما قالته الفتاة عنها من أنها ليست امرأة مجتمع وأنها لا ترى خارج بيتها إلا قليلا، ولكن أولئك الذين رأوها كانت وجوههم تفيض بالنور عندما يذكرون اسمها وكانوا يحسون بالعجز عن وصفها كما يعجز طفل عن وصف شيء لم يبصر به من قبل . ولاحت لنا الدار قائمة على ربوة تطل على النهر ، وقد أحاطت بها الشجيرات المزدهرة وكسيت جذرائها بالنباتات المتسلقة حتى بدت الدار نفسها كأنما قد نبتت من باطن الأرض ، أو كأنها من صنع الطبيعة المبدعة المتفنتة .

ووقفت العربية ، ولم تكد أقدامنا تظأ الأرض ، حتى شعرنا بثلاثة أطفال يتصايحون ويقفزون حولنا .

ودخلنا الدار ، وتأملت فيما حولي ، فخيّل إليّ أنهم لو وضعوني في تلك الدار فجأة وسألوني عمن يكون صاحب الدار ، لأقسمت لهم غير حاث أنه هو الرجل الفنان ، فهذه الرقة والدق ، وتلك الصور التي قد علقت هنا وهناك .. وهذه الروح الجميلة الساحرة التي يكاد يبصرها المرء في كل شيء لا يمكن أن تكون هذه جميعها إلا له .

واستقبلتنا صبية في نحو الثانية عشرة عرفني الرجل أنها ابنته الكبرى وأنها تجيد الرسم ، ولم تكن الصبية بغريبة عني فقد كنت أذكر جيداً ذلك الوجه الفاتن والشعر الذهبي ، وأدركت أن الصبية لا بد وأن تكون شديدة الشبه بأمها .

وجلسنا فى إحدى الغرف المطلة على النهر ، وكان ضجيج الأطفال يصل إلينا واضحاً ، وقد أخذوا يلعبون على شاطئ النهر ، ونخيل إلى أن عددهم قد ازداد كثيراً ، فقد كنت أبصر بين آونة وأخرى وجهاً جديداً يطل علينا من باب الغرفة ثم يندفع إلى الشاطئ .

وبدأت أشعة الشمس تسطع فى هدوء ودفء ... وأبصرت بالأطفال من النافذة وقد لمعت شعورهم الذهبية فى أشعة الشمس ، وبدت أجسادهم عارية وهم يسبحون فى مياه النهر .
وحدثنى الرجل فى شتى النواحي ، فكان حديثه لطيفاً ممتعاً ، وعندما أخبرته أنى أشتغل بالكتابة أجابنى ضاحكاً :

- إذ ليس عجباً منك ذلك الحب للفن ، فكلانا عاشق للجمال ، كل بطريقته . أنت بالكلمات ، وأنا بالصور .
وسألنى بعد ذلك إن كانت بى رغبة فى رؤية بعض أعماله ؟ فأجبت :

- ليست مجرد رغبة ياميدى .. إن بى لهفة .

وسرت معه إلى « الاستوديو » الذى يعمل به ، وكان يقع فى غرفة واسعة فى أعلى الدار .. وكان أول ما وقع عليه بصرى هى إحدى الصور التى لم ينته منها بعد ، وكانت الصورة لامرأة قد اتكأت بيدها على حافة نافذة وسبحت ببصرها فى الفضاء اللانهائى .

ووقفت مبهوراً أمام الصورة ، إنها هي بعينها ... ذلك النموذج الذى تعودت أن أراه فى كل صورة بشعرها الذهبى ووجهها الفاتن ، وأغلب الظن أنها كانت تسبح ببصرها فى مياه النهر ، وترقب تلك الأجساد الأسطوانية البراقة وهى تغوص فى الماء .

وأخذ الرجل يشرح ويتحدث وأنا أقلب البصر فى تلك الصور المتناثرة فى أنحاء الغرفة .. وبنفسى نشوة الثمل فى قبو من الدنان ، أو الفقير فى كنز من الذهب .

وأقبلت الصبية الشقراء تدعونا للغداء .. وتركنا الغرفة وبنفسى بعض الدهش .. فحتى تلك اللحظة لم أر للمرأة الساحرة أى أثر فى الدار ، ولم أبصر لها شبحاً أو أسمع لها صوتاً .. حتى الرجل نفسه لم يأت لها ذكر على لسانه ، ولم يفه بكلمة عنها من قريب أو بعيد .

وكنت أستبعد أن تكون المرأة قد شغلتهنا عنا أعمال الدار وطهى الطعام ، فما أظن ذلك النوع من النساء قد خلق لمثل تلك الأعمال ... وأغلب الظن أنها غائبة عن الدار فى قضاء حاجة .. وعللت نفسى أنها لا بد عائدة قبل الغداء ، وأنى سأمتع النفس برؤيتها خلال الطعام .

وجلسنا حول المائدة .. الرجل ، وأنا .. وخمسة أطفال والصبية الشقراء ، وبدأنا الأكل ، وانتهينا منه ، ولما أبصر للفاتنة وجهاً .. حتى بدأ اليأس من رؤيتها يتسرب إلى نفسى ! !

وأدهشنى غياب المرؤة ، وأدهشنى أكثر من ذلك أن يكون لها ستة أبناء ! فمن يستطيع أن يصدق أن ذلك الجسد النموذجى قد أنهك بالحمل والولادة والرضاعة ست مرات ، ولكن من يدرى ربما كانوا من أم أخرى .

وخرجت والرجل نسير على الشاطئ ، وأنسانى حلو حديثه ورقة نفسه ما شعرت به من خيبة أمل لافتقادی المرأة العجيبة . وبدأت الشمس تسقط فى الأفق فأورثت السماء كنوز الشفق الأحمر وعدنا إلى الدار والمرأة لا أثر لها .

وأحسست بالحزن يملأ نفسى .. هذه فرصة العمر التى قد سنحت لأبصر المرأة التى عشقت صورتها ، على وشك أن تفلت . أترى الرجل يغار على امرأته من فرط ما بها من فتنة ، فهو لايسمح لغيره من الرجال برؤيتها ؟ . أم .. أم تراها، قد ماتت ، وأصبحت أثراً بعد عين ؟

وشعرت بقلبى يغوص بين جنينى .. فليس الأمر ببعيد وبخاصة أن الرجل لم يذكرها قط . فلعله يجزع أن تنكأ الذكرى قرحه وتدمى جرحه .

واستأذنت من الرجل أن أتركه لأعود ، ولكنه أبدى عجبه قائلاً :

- ولم العجلة .. إن العربة ستعود بك فى أى وقت تشاء .. إننا

لم نتناول شاي المساء بعد .. إني تعودت أن أشربه مع امرأتى عندما تسقط الظلمة ، ويسعدنا أن تشاركنا إياه ..

وكدت أقفز من مكاني وأصيح من شدة الفرح ... لقد نطق الرجل أخيراً ، وذكر امرأته .. حمداً لله ، إنها ما زالت على قيد الحياة ، وحمداً له أنى سأبصرها أخيراً بعد أن أصابني اليأس . وانتشر الظلام ، وتركنى الرجل وحدى فى إحدى الحجرات .. ثم عاد إلّى بعد برهة وأخبرنى أنه قد أعد الشاي ثم قادنى إلى الحديقة واتجهنا إلى ركن بها قد تكاثفت فيه الأشجار واشتدت الظلمة .

ولم أكن أستطيع أن أميز مما أمامى سوى أشباح الأشجار والأغصان التى تهز الريح أطرافها ، وكنت أنتظر أن يوقد الرجل مصباحاً يضىء به ظلمة المكان .. ولكنه تقدم بى حتى ركن الحديقة ونحن فى حلقة دامسة .

وجلسنا تحت الأشجار ، وبدأت أعود الظلمة حتى استطعت أن أميز أمامى مائدة عليها أدوات الشاي ، وقال الرجل مفسراً :
- إننا نفضل الظلمة ... ففيها مبعث السحر والفتنة وفيها هدوء جميل ...

ووافقت الرجل ، وإن كنت فى قرارة نفسى لا أحس أى أثر لذلك السحر والهدوء ... بل إننى لأحس بالكثير من الخوف

والرهبة ويبيض من خيبة الأمل حيث أننى لن أستطيع أن أبصر من المرأة إلا شبحاً يلفه الظلام .

وبعد برهة أحسست بحفيف ثوب أقبل فى الظلمة ، وأخيراً وصلت المرأة .

وحدث ما كنت أتوقع ... فأنى لم أميز فيها إلا شبحاً أو خيالاً ، وإن كنت قد أحسست من حرارة يدها عندما صافحت يدى .. ما جعل النشوة تملأ من أخمص قدمى إلى قمة رأسى ؟ وتحدثت المرأة فإذا بصوتها قد جعلنى من فرط عذوبته أقنع منها بمجرد سماعها ، لقد أغنانى حديثها وصوتها وجمال روحها .. عن محاولة التطلع إلى جمال وجهها وجسدها ، بالمرأة العجيبة ، لقد أحسست بجمالها دون أن أراها ، حتى لكأنها رغم الظلمة الداجية أشرقت فى قوادمى .

وافترقنا أخيراً ، وسرت مع الرجل خارج الدار وأنا أحس أن كل ما حولى جميل ، حتى أنا ، فقد خيل لى من فرط إحساسى بجمال المرأة ، أنها آية فى الأرض من آيات السماء ، خلقت لتمنح بسطاء هذا الجمال والرواء ، فإذا كل ما حولها ناضر جميل .

وجلس فى العربة بجوار الرجل واشتدت الظلمة وساد بيننا صمت عميق ، وراح كل منا فى غمرة من تفكيره حتى رأيت الرجل يرفع لى وجهه ويسألنى :

-- أصدقت أننى حقاً أجد فى الظلمة هدوءاً وسحراً ؟ وأدهشنى
سؤال الرجل ، وترددت برهة قبل أن أجيب :
- ولم لا ؟ على أية حال أنا نفسى لا أحبها ، ولكن الناس فيما
يعشقون مذاهب .

- لا ياسيدى ... أنا أيضاً لا أحبها ، دعنى أنبتك بجلية الأمر ..
فإنى لا أود أن يخفى عليك شئ من أمرى ، ولا أحب أن تتهمنى
بالشذوذ .

ثم صمت الرجل ولم أدر بماذا أجيبه وفضلت أن أتركه فى
صمته .. حتى بدأ يتكلم أخيراً بصوت أجش عميق :

- مازلت أذكر أول مرة رأيته فيها ، ومازلت أذكر ابتهاجى
عندما أقتنعته بأن تكون نموذجاً لتلك الصور التى كنت أبحث لها
عن نموذج .

ومرت الأيام وعلاقتى بها لاتفيد على علاقة رسام بنموذج ينقل
عنه .

ولكنى بدأت أحس أنها أكثر من نموذج رسام ، لقد كان بها
شئ أسمى من جمال الوجه والجسد ، كان بها قلب جميل وروح
أجمل .

ولا أطيل عليك فقد انتهى بنا الأمر إلى الزواج ، وما أظننى
شعرت بسعادة كتلك التى شعرت بها وأنا أسير بجوارها فى يوم
الزفاف .. فقد خيل إلى أنى أمسك بالأمل والمجد كله بين يدى ،

وأقول لك الحق ، لقد كانت المرأة سبباً فى كل ما أصبت من النجاح إذ لايكفى لكى ينجح الرسام أن يظهر فى صوره جمال الوجه والجسد ، إن المعجزة هى فى أن يظهر جمال الروح وفرط الشعور والإحساس ، وما كنت لأفعل ذلك بدونها .

ووجدت من نموذجى الحى .. نموذجاً لزوجى ، ونموذجاً لأم وأعانتنى فى كل شئ فى الحياة فلم أحس فى يوم ما أن هناك شيئاً ينقصنى .

وفى ذات يوم غبت عن الدار لعرض بعض اللوحات فى معرض المدينة ، وعدت فى اليوم التالى فراعنى ما رأيت بالدار .. لقد وجدت بها سكونا موحشاً وآثاراً لحريق شب فى جوانبها .

وأخبرتني الخادمة وهى تبكى أن سيدتها فى مستشفى قريب ، وحن جنونى فسألتها عما حدث ، وأجابتنى فى شبه همس : إن حريقاً قد شب بالدار ، وكان الأطفال يلعبون على الشاطيء ، والأم قد جلست بجوارهم ... فأذهلتها النار المشتعلة ، ولكنها حمدت الله أن الدار ليس بها أحد إذ كان الأولاد جميعهم فى الخارج ، ولكننا رأيناها تقفز من بيننا فجأة وتندفع إلى داخل الدار صائحة : الصور !! إنها عزيزة لديه كأولاده سيفجعه فقدها كما يفجعه فقدنا !! .

وطواها الدخان الأسود قبل أن نستطيع منعها ، ثم رأيناها تقف

فى النافذة وتقذف إلينا باللوحات الواحدة تلو الأخرى حتى أنقذتها
جميعاً ، وأخيراً عادت إلينا ... ولكنها

وصمتت الخادمة ، فقد خنقها النحيب .

وذهبت إلى المستشفى ، وكأني بي جنة ، ودخلت إلى
حجرتها ، فإذا بها راقدة على فراشها ، ونظرت إلى وجهها .

وصمت الرجل ثم همس فى صوت مبحوح :

– لقد وجدت النموذج قد تحطم ! ؟

وأمسكت بيد الرجل فأحسست بعبرات ساخنة تتساقط من عينيه
على يدي ، وارتج على .. فلم أنبس ببنت شفة ، ولم أستطع أن
أمنع دمعين تترقرقان فى عيني ، وأدركت سر تلك الظلمة التى
قابلت فيها المرأة .

وأخيراً استطعت التحدث فقلت للرجل بصوت يفيض بالعطف
والحنان :

خفف عنك يا صاحبي .. إن نموذجك لم يتحطم ، إنه حى
باق .. فقد أودى الحريق بجمال الوجه والجسد وهو جمال زائل ،
ولكنه أظهر فيه جمال النفس والروح ، وهو جمال لا يفنى .

★ ★ ★

الغائبان

وبدأت العجوز تتحدث وهي تحملق في
النيران كأنها تحدث نفسها ... وكانت
الكلمات تخرج من فيها بطيئة وهي تروي قصة
العاشقين الغائبين .

الريح تهب من البحر قوية عاتية ، فتعصف بأشجار
كانت الشاطئ الكثيفة التي لفها الليل بأرديته السوداء
الحالكة ... فبدت كأنها أشباح مخيفة متجهمة الوجوه .. مكفهرة
الأسارير .. وكأنما اتخذت ريح البحر من الأشجار المكتيبة قيثاراً
تعزف عليه لحنها الحزين ... الذي زادت رهبة الليل من وحشته ،
فبات كأنه نحيب الثكلى ، أو نعيب البوم ، يوحى بالخراب
والدمار !

كان كل ما في المكان موحشاً كثيفاً .. فكأن الطبيعة هناك في
حداد دائم ، وحزن مقيم .. وأقفر المكان من ساكنيه ، إلا كوخاً
مهتماً خرباً بدأ فيه بصيص من ضوء مرتجف مرتعد ، كان هو كل
ما يستطيع المرء رؤيته في تلك الظلمة المدلهمة .

ومضيت في سبيلي أتخط بين صخور الشاطئ ، متجهاً إلى
الكوخ حتى وصلت إلى بابه ، فطرقت .. وما كان بي من حاجة
إلى طرقة .. فقد كان الكوخ من التداعى بحيث يستطيع الإنسان
حمل جدرانته ، وترك صاحبه بلا مأوى .

وصاح بى صوت من الداخل ، خافت أجش :
أدخل !

ودخلت .. ثم اتجهت إلى صاحب الصوت ، فإذا به امرأة
ضامرة شاحبة كأنها كومة من العظام لفت بغشاء من الجلد الرقيق .
سألته فى رفق وأدب :

هل أستطيع أن أجد لديك مكاناً يقينى شر هذه الليلة الليلاء ..
فقد أصاب العطب قارىبى .. ولم أجد فى هذه البقعة المقفرة إلا
كونحك ملجأً ألوذ به ؟
ولم تجب العجوز ، بل نظرت إلى نظرة فاحصة ، وسألتنى فى
لهفة :

- أقادم أنت من البحر يابنى ؟

- نعم يا أماه .

ألم تصادفهما فى طريقك ؟

- أصادفهما ! ومن تعنين يا سيدتى ؟

- هما .. كيف لا تعرفهما ؟

وهزرت رأسى فى دهش .. فقد كنت لا أفهم ماذا تقصد
المرأة ، ولاحظت حيرتى ، فدعتنى إلى الجلوس ثم أفهمتنى أننى
أستطيع البقاء كما أشاء ، فإن لديها فراشين خالين يمكننى أن آوى
إلى أحدهما .

وجلست أصطلى بنيران أوقدتها العجوز ... وأحسست أن المرأة قد اطمأنت إليّ .. فبدأنا نتجاذب أطراف الحديث .

وسألتها من هما اللذان سألتني عنهما بلهفة ؟ فنظرت إليّ فى دهشة واستنكار ثم أجابت :

- هما كل شيء ... هما الجمال والقوة ... هما الحب والحياة لاشك أنك غريب عن هذه الناحية . فما من أحد يجهلها .

وسكتت العجوز برهة ، ثم أطرقت برأسها وأردفت بقولها فى صوت خافت :

- لاشك أنهما هاتان .. فلم يكن يسعدهما شيء قدر قرب أحدهما من صاحبه ... ولا شك أنهما بمنجاة من ذلك الوغد الشرير .. ولكن غيبتهما قد طالّت ... ترى متى يعودان ؟

وسألتني حب الاستطلاع إلى أن أستدرج العجوز ، فأجعلها تبوح بما خفى من أمرها وتروى لى قصة الغائبين الذين تتلهف شوقاً إلى عودتهما .

وبدأت العجوز تتحدث وهى تحملق فى النيران كأنها تتحدث نفسها ، وخيل إليّ أن صوتها العميق الأجش يصدر من أعماق الماضى السحيق ... وكانت الكلمات تخرج من فيها بطيئة متلدة ... وهى تروى قصة العاشقين الغائبين .

قالت العجوز :

- فى ذات ليلة ليلاء ، شديدة الشبه بهذه الليلة .. كنت أظهى

بعض الطعام للعشاء .. وكان ولدى قد أخذ يتسلى بقراءة إحدى القصص ، عندما طرق الباب طرقات خفيفة مترددة .. وقام ولدى ليرى من الطارق .. فإذا به فتى نحيل التقاطيع ، أصفر الوجه .. وقد أخذ الماء يقطر من ثيابه .

وتكلم الفتى ، فإذا به رقيق الصوت ، مرتجف النبرات وسألنا عن مكان يأوى إليه ، وكنا دائماً نتوقع هذا السؤال فقد كان الشاطئ في هذه الناحية شديد الخطورة ، متلاطم الأمواج ، وكثيراً ما تحطمت به السفن والقوارب .. ولما كان كوخنا هو أول ما يصادف القادمين من البحر ، فقد تعودنا أن نفسح دارنا لكل طالب مأوى تقذف به الأمواج .

ودخل الفتى ، وكانت آثار التعب والأعياء بادية على وجهه .. وكان صوته متهدجاً من شدة الألم والعجز ... وحاولنا أن نعرف قصته ، ولكن حديثه كان غامضاً مبهماً وكأن في صدره سرّاً يخزه ، ولا يجسر أن يبوح به ، وكل ما علمناه منه أنه كان في رحلة في أحد القوارب إلى مكان مجهول ، وأن القارب تحطم ففرق زميلاه ثم قذفته الأمواج وحده إلى الشاطئ .

ولما أصبح الصباح ، وجدنا الفتى في حيرة من أمره ، لا يعرف أين يذهب ، وأشفقنا عليه . فراودناه أن يمكث معنا حتى يستطيع أن يدبر أمره .

ومرت الأيام والفتى يعيش بيننا ، وقد عادت السكينة إلى نفسه والاطمئنان إلى قلبه .

وبدأ يستشعر الثقة بنا رويداً رويداً .. ولكن سحابة همّ كانت تعلو وجهه بين حين وآخر . فتفصح ما فى نفسه من ألم مكتوم ، وحزن مكبوت .

وفى ذات يوم ، وقد خرج ولدى للصيد .. وجلست وحيدة مع الفتى ، أخذ ييوح لى بسرّه العجيب ، ويكشف لى عن خبيثه نفسه .

وعلمت ، أول ما علمت من الفتى ، أنه ليس فتى ا . بل فتاة شاردة هاربة ! كانت الفتاة ابنة أحد الأثرياء .. وكان حاكم بلدتها رجلاً قاسياً ظالماً باطشاً .. وضع فيه القدر كل ما فى الدنيا من سيئات ، وحرمه كل ما فيها من فضائل ، قبيح الوجه ، زرى الهيئة ... وكان إلى جانب هذا فاسقاً ، فاسداً ، يفرق ويسرف فى الشهوات .. ويشاء الحظ العاثر أن يرى الرجل الفتاة فيهمم بها ، ويرسل إليها بعض رسله يغرونها بالذهاب إليه . ولكن الفتاة أعرضت عنهم ... وهرعت إلى أبيها مرتعدة خائفة .

وعجب الأب من أمر فتاته وسألها عما بها ، وعن سر خوفها فأنبأته بما كان من أمر الحاكم ورجاله وكيف راودها عن نفسها ، وكيف أغرونها بالذهاب إليه .

وثارت نائرة الأب ، وجن جنونه فقد كان يعلم مدى فسق

الحاكم وفجوره واستهتاره ، واندفاعه وراء شهواته ... وكيف لا يصدده عنها رادع من تقاليد ولا خشية من ضمير . وجزع الرجل من أن تذهب ابنته العزيزة الطيبة الأبية ضحية لنزوة من نزوات الطائش الأحمق يقضى منها حاجته ، ثم يلفها كغيرها لفظ النواة . وصمم الأب على مقاومة الحاكم ، وأقسم بين الناس أن يصدده ويردعه .

وساء الحاكم أن تصده الفتاة وأن يعصاه أبوها ، فأقسم أن ينالها بالقوة . وكان أن أمر رجاله باغتيال أبيها . ووجدت الفتاة نفسها وقد أوشكت أن تصبح لقمة سائغة فى فم الرجل ، ولم تجد أمامها من منقذ سوى الهرب من البلدة ، ومضت تدبر أمر فرارها ، فصممت على أن تتنكر فى زى فتي أو بدأت إحدى خادوماتها تقصى لها شعرها الذهبى الجميل ... وأحضرت أخرى ما يلزم لها من الثياب .

وتحركات إحدى المركبات فى جنح الظلام تحمل الفتاة ومعها خادمان حملتهما ما استطاعا من المال .. وبعد لحظات كان أحد القوارب يمحى بهم عباب اليم ، قاصدين إلى قرية نائية يقطنها عجوز من أقرباء الفتاة ... ولكن القارب تحطم فى الطريق ، فقذفت الأمواج بالفتاة إلى الشاطئ ، وغرق الخادمان !

واستحلفتنى الفتاة أن أكتب سرها ، وألا أذيع أمره . حتى لا يتناقله الناس ، فيعلم حاكم بلدها ... وحيثذ تكون الطامة الكبرى .

ولم يكن هناك من سبيل لإخفاء السر عن ولدى فأخبرته به ،
وطلبت إليه كتمانها ، فدهش الفتى ووعد بالكتمان .

على أنه حدث بعد ذلك ما كنت أتوقعه .. فقد بدأ الهوى
ينصب شباكه حولهما ، فسقطا فيها !

ومست عصا الحب السحرية كل ما فى الكوخ .. فإذا بحياتنا
جميعاً تضيء وتزدهر ، وغمرتنا السعادة ، وفاضى علينا النعيم ..
وكان الفتى والفتاة يملآن جوانب الدار بضحككاتهما العذبة ،
ويفيضان على كل ما حولهما جوراً ومرحاً ...
وابتسمت الطبيعة من حولنا ... فكان كل ما فيها ضاحكا
باسماً .

ولكن سعادتنا لم تدم ... فقد أخذ نبال الفتاة يتسرب إلى أهل
القرية ، وبدأت الألسن تلوك قصتها .. وعرف الناس أن لدينا فتاة
متنكرة فى ثياب فتى .

وبطريقة ما وصل نبؤها إلى الحاكم ... وكان قد أعياه البحث
عنها ، ولم يستطع أن يعرف إلا أنها قد فرت فى هيئة فتى ... فلم
يعد لديه شك فى أن الفتى الذى حدثوه عنه هو فتاته الهاربة ..
ففى ذات يوم ، وقد أوشكت الشمس على المغيب ، سمعت ولدى
يطرق الباب بشدة ، وقد أقبل من القرية يلهث من التعب ، وقطرات
العرق تقطر من وجهه وهو شاحب اللون .. وصاح بى والكلمات
تتسابق من شفثيه فى ذعر .

- أين هي ؟ لقد رأيت بضعة رجال يقبلون على ظهور الجياد ،
وقد علمت من أهل القرية أنهم يسألون عن كوئنا وأنهم يستفسرون
عنها وعن أوصافها ... وقد قيل لى إنهم من رجال الحاكم ،
وأخشى أن يكونوا قد أتوا للقبض عليها وأخذها معهم !
وسمعت الفتاة حديثه فارتعدت أوصالها .. وعلت وجهها
صفرة الموت ، واستطرد الفتى صائحاً :

- هلمى يا حبيبتي ! .. فإن أفضل وسيلة لتضليل هؤلاء القوم ..
هو أن نأخذ قاربى ، فنختفى به فى عرض البحر حتى يذهبوا .
وجذب الفتاة من ذراعها .. وأسرعاً يركضان نحو الشاطئ ،
وكان آخر ما سمعته منه قوله :

- سنعود إليك يا أماء ، بعد أن يذهب الرجال .. فكونى فى
انتظارنا .

وحضر الرجال ، وقلبوا الكوخ رأساً على عقب ... بل قلبوا
القرية كلها ، ولم يتركوا شجرة ، ولا صخرة ، إلا فتشوها ...
وأخيراً أصابهم اليأس ، فعادوا أدراجهم من حيث أتوا ... مهددين
ومنذرين بالعودة مرة أخرى .

وبدأت أنظر عودتهما ، وشعرت بوحدة مخيفة ، وكانت الطبيعة
قد أخذت تثور وتزمرجر ، والبحر يرغى ويزيد ، وكل ما حولى
يعث فى نفسى الرعب والهلع .

ومرّت الليلة السوداء دون أن يغمض لى جفن ، ومرّت بعدها

الليالي أشد حلكة وأكثر ظلمة ، وأنا أنتظر الغائبين ، وكرر رجال
الحاكم مفاجأتهم مراراً .. فكنت أحمد الله على أن الفتى والفتاة
لم يعودا بعد ، وأنهما فى مأمن من سطوة ذلك الحاكم الشرير .
وهذا ما كان يبعث فى نفسى العزاء عن طول الانتظار ، ولوعة
الفرقة ، فلا شك عندى أنهما الآن سعيدان ما داماً سوياً ، وما داماً
بمنجاة من شر الحاكم .

وهنا سكنت العجوز ، وقد خيم على المكان صمت مخيف
كأنه صمت القبور ... ومر برأسى حادث رأته منذ بضعة
أسابيع ... وذكرته فى تلك اللحظة ، فبعث القشعريرة فى
جسدى ، وأحسست أن قلبى يكاد يقف عن دقاته .

ذكرت أنه منذ بضعة أسابيع ، ألقى البحر إلى قريتنا التى تبعد
عن قرية العجوز عشرة أميال ، جثتين غريقتين ، شوهما البحر .
وتذكرت أن كل ما أثار دهشتنا فى الجثتين هو أن إحداهما كانت
لفتاة قد قصت شعرها ، وتزيت بزى الرجال !

وعرفت خاتمة قصة العجوز ، فنظرت إليها وهى تحمق فى
النيران ... ولم أستطع أن أغالب قطرات الدموع التى تساقطت من
عينى ، فأدبرت وجهى إلى الناحية الأخرى ، وتمتمت بصوت
خافت :

- نعم يا أماه .. لاشك أنهما سعيدان ما داماً سوياً وما داماً

بمنجاة من شر الحاكم ، بل من شر كل مخلوق على ظهر هذه
الدنيا الحقيرة التافهة .

وهبت الريح تعزف لحنها الموحش الحزين .. ولم أعد أعجب
بعدئذ أن تبدو الطبيعة فى هذا المكان فى حداد دائم وحزن مقيم ،
فقد كانت الطبيعة أعلم بمصير الغائبين .

★ ★ ★

امرأة نافذة

المرأة النافذة ! .. أتراها حقاً ما زالت في
نظرة نافذة ؟ لو قيست بما كانت عليه في الليلة
الماضية ، فإنها تكون كل شيء... إلا نافذة ...

ليل دامس شديد السواد ... تكاثفت فيه السحب
في حلقة فحجبت مصابيح السماء .. وأوى الناس إلى
مضاجعهم ، فلم يبد في الدور الساكنة أثر للحياة أو قيس من ضياء ،
وعمت الوحشة وساد السكون فما عاد يسمع هناك إلا ريح تعصف
أو ذئب يعوى .

في خلال ذلك الليل المظلم الموحش بدأ في أحد أبراج القلعة
الشامخة ضوء خافت يلوح من إحدى النوافذ ... وكان ذلك في
أوائل القرن العاشر في إحدى دول أوروبا الوسطى ، وقد جلس
الفارس الشاب في حلته العسكرية ، وكان تلك الريح التي تعصف
خارج النافذة قد امتد عصفها إلى رأسه فبدأ مشئت الأفكار شارد
الذهن .

إنه لا يحس برغبة في النوم فما زالت أضواء تلك الليلة الماضية تشع
في رأسه ، وما زال ضجيجها يصطبغ في ذهنه وقام الرجل إلى
النافذة ففتحها فاندفعت الريح الباردة إلى داخل الحجرة .. لقد كان
في حاجة إلى تلك الريح لتطفئ ذلك اللهب الذي يشتعل في صدره
وتهدي تلك الثورة التي تضطرم في جوانحه .

وجلس يستعيد في رأسه ما رأى في ليلته الصاخبة ... وأخذت
الذكريات تمر بمخيلته في سرعة البرق ...

كانت الليلة هي موعد السوق الكبرى التي أقيمت لجمع الأموال
اللازمة لتعزيز الجيش والاكتتاب لتقوية وسائل الدفاع عن الوطن
المهدد .. وإذ لم يعد سراً خافياً أن دول الشمال قد أخذت تتحفز
للهجوم ، وأن الاعتداء قد بات متوقعا بين آن وآخر .. وما هذا
السكون الذي يسود الجو إلا سكون ما قبل العاصفة أو تحفز ما
قبل الوثب .

وذهب الفارس الشاب - وكان قائدا لإحدى فرق الفرسان -
لمشاهدة السوق .. فوجدها حافلة بالرقص والغناء ... تضح فيها
الطبول ، وتصدح المزامير .. وتتلأأ أضواء المصابيح البراقة
المتوهجة ، وتشع فيها أنوار العيون الفاتنة الساحرة .. وقد تكوّن
من هذه ومن تلك سحر عجيب يبعث النشوة في الرؤوس والمرح
في النفوس .

وسار يشق طريقه بين الأجساد المترابطة المتلاصقة فقد احتشد
في المكان جميع هائل من الناس حتى وصل إلى ناحية علا فيها
الضحك وازداد الضجيج والهتاف . فاستطاع ببعض الجهد أن يتخذ
له مقعدا وسط ذلك الجمع الذي احتشد في شبه دائرة .. ملئت
بالغيد الحسان .. والرقصات المطربات .

وكان المكان قد أعد لكي تتقدم إليه الحسان فيعرضن بعض

أمتعنهن التافهة التي تبرعن بها .. ثم تبدأ المزايدات عليها ... فيظل ثمنها يرتفع ويرتفع حتى يرسو البيع على أحد المزايدين من الأثرياء ممن يتلهفون على أن يكون لديهم من هذه الحسنة أو تلك .. أثر يتباهون به ويعتزون . وهكذا كانت ترتفع قيمة الأمتعة بمقدار فتنة صاحبها وتعدد عشاقها .. حتى لقد بيعت بعض الأمتعة التافهة بأضعاف أضعاف الجواهر والحلى .

وتلفت الفارس يبصره بين الجموع المحتشدة ، فراه ذلك الفيض من الجمال الذى يتدفق فى المكان . فما ذكر قط أنه قد أبصر بقدر من الفتنة قد اجتشد فى مكان كما اجتشد وقتئذ ... فما تلفت هنا وهناك إلا ووقع بصره على وجوه ناضرة مشرقة .. يرى فى عينها سحراً باهراً ، وفى شفاهها فتنة وإغراء .. حتى لكأن المكان حديقة فى إبان الربيع تفتح كل ما فيها من زهور ، ونضج كل ما فيها من ثمار .

واستقر بصره أخيراً على وجه كان أكثر الوجوه فتنة وأشدّها جاذبية .. ولم يكن الوجه غريباً عنه ، بل كان يعرفه تمام المعرفة .. فقد التقى بصاحبه بضع مرات قبل الآن .. وكان يطلق عليها مع أصحابه اسم « المرأة التافهة » .

وكانت المرأة جميلة حقاً .. فقد كانت من ذلك النوع الذى لا يستطيع أن يجد فيه المرء عيباً ولا هنة ، ولو فكر الإنسان فى وضع مقياس للجمال .. لانتخبها حداً أقصى ... وجعل من كل

قطعة فيها نموذجاً لما يجب أن نكون عليه المرأة الجميلة ، فهذا الشعر الغزير المرسل على كتفيها فى بريقه الأخاذ كأنما ليغشى العيون عن وجهها الضاحى ، وهاتان العينان اللتان لا يقوى إنسان على أن يطيل النظر إليهما من فرط ما ينبعث منهما من سحر عجيب ، وهذا الأنف الدقيق والحدود المتوردة والشفتان اللتان يشعر الناظر إليهما أنه فى حاجة إلى مجهود خاص يقاوم به تلك الرغبة الجامحة التى تدفعه إلى أن يعلو فيلصق بهما شفتيه ، وهذا الجسد الممتلىء فى استواء وتنسيق .. كل هذا كان نموذجاً لما يجب أن يكون عليه الجمال .

ومع ذلك ، ومع كل ما اجتمع لها من جمال وفتنة .. لم يختار الرجل من الأسماء ما يطلقه عليها ... سوى « المرأة النافهة » .

ولم يكن لها عمل فى الحياة إلا أن تحيط نفسها بالعشاق والمحبين . وكانت تنظر إليهم كأنهم قطع الشطرنج أو كما ينظر الطفل إلى ملهاة تسليه أو لعبة تذهب بوقته ، وكانت تحاول الاستزادة منهم . كما يحاول الطفل أن يستزيد من عرائسه الخشبية ، وكان فى كل مرة يلقاها .. يرى عينيها كأنما تدعوانه بالحاح ، ويصر فى حركاتها وإشاراتنا كثيراً من الإغراء ، ولكنه لم يكن ليلقى إليها شيئاً من الإهتمام ... ولم يكن ذلك منه عفة أو زهداً ... بل لأنه لم يكن يرغب فى أن تضيف إلى قائمة عشاقها عاشقاً جديداً .. ولم يكن فى إعراضه عنها بالغافل عن مبلغ ما فيها

من حسن وروعة . بل على النقيض .. كان من أكثر الناس تقديراً
لذلك الحسن وتلك الروعة ، ولكنه - على حد قوله - لم يكن
ليحب التوافه ، وكان يكره أن يرى وراء ذلك المظهر الخلاب باطناً
أجوف .. ونفساً واهية ، وكان يحب من المرأة عاطفتها الفياضة
وشعورها المتدفق .. وهذا ما كان يستطيع أن يجزم بأن « التافهة »
خلو منه .

وجاء دور المرأة .. فاندفعت بين الراقصات ، تقفز وتتواثب
وتتثنى دلالةً ، وفكت شريطاً رفيعاً كانت تعقّص به شعرها ..
وتركته ينساب على كتفيها .

وتهافت الفوم على الشريط وعلا ضجيجهم بالمزايدة . وبيع
الشريط بما يعادل ثلاثة أمثال ثمن أنفس ما بيع في كل المزادات ..
ثم أخذت بعد ذلك في خلخع عقد قد حلت به جيدها .. ثم
خاتم .. قد زينت به إصبعها ، وسوار في معصمها .. وهكذا حتى
خلعت كل ما عليها من حلى ، وقدمته في هذا المعرض .
وانتظر الرجل أن تغادر حلبة الرقص فتعود إلى مكانها وسط
العشاق والمعجبين ، ولكن المرأة لم تفعل .. بل استمرت تتثنى
وتتلوى بين الراقصات .

بالمرأة العجيبة .. ماذا تراها تنوى أن تفعل ؟ .. لقد بدأت تخلع
عنها ثوبها لتعرضه للبيع .. وضج الناس بالهتاف وجن جنونهم
وتملكتهم نشوة فأضحوا كالسكارى وبدأوا يتقاتلون في سبيل

الحصول عليه .. وبيع الثوب الخارجى بما يعادل ثروة طائلة ..
ووقف المرأة عارية ألا من ثيابها الداخلية الشفافة .

وسادت فترة سكون ، وكم القوم أنفاسهم فى انتظار ما تنوى
المرأة أن تفعل .. ونظرت حولها إلى العيون المتعطشة .. ثم حدثت
فى الرجل بنظرة كلها فتنة وإغراء ، ومددت يدها إلى جسدها ببطء
فنفضت عنه ذلك الثوب الشفاف الذى خجّب وراءه أبدع ما يمكن
أن تراه عين وأروع ما يمكن أن يقع عليه بصر .. وبدأ صدرها
فى استواء وامتلاء كأنه فاكهة ناضجة قد أثقلت غصنها النضير فغدا
طيب الجنى داني القطوف ..

وسرعان ما بيع الثوب ووقفت المرأة عارية الا من غلالة سترت
نصفها الأسفل ، وأحس الرجل بالدماء تتدفق حارة فى شرايينه .
وانتظر ما تنوى المرأة أن تفعل بعد .

ولم يطل انتظاره .. إذ لم تمض فترة قصيرة حتى بدأت المرأة
العجيبة تعرض كل ما تبقى لها ، وتهب الشئ الوحيد الذى أضحت
تمتلكه .. تهب نفسها .

وساد القوم صمت عميق ، وجلسوا كأن على رؤوسهم الطير ،
ولكن السكون لم يطل .. فقد قفز الفارس من وسطهم .. واندفع
إلى المنصة ، وركع أمام الجسد العارى ، وصاح بصوت يفيض
بالشوق :

- إني أعرض روحي ... ثمناً لك .

ونظرت المرأة إليه . ثم إلى من حولها . وأجابته برقة :

- إني لك .. فإن روحك أثمن من أموالهم !

ولم يذكر ما حدث بالضبط بعد ذلك ، فقد علا الضجيج واشتد الصخب ... ولم يشعر بنفسه إلا وقد لف المرأة في غلاتها الرقيقة وحملها بين ذراعيه واختفى بها في الظلمة الدامسة وأحس بجسدها الدافئ يمس جسده ، وبأنفاسها تلمح وجهه .

ودهش الخدم عندما أبصروا بالفارس يعبر الأبواب وقد حمل بين يديه امرأة شبه عارية .. كأنما قد اختطفها من فراشها ، وصعد بها إلى حجرته في سكون شامل .

واستيقظ في الصباح ، وكأن ما مر به لم يكن سوى أضغاث أحلام .

وكان أول ما سمعه في ذلك الصباح ... هو أن الحرب قد أعلنت ... وأنه قد يستدعى في التو واللحظة .. فترك المرأة في الفراش وغادر الدار .

وكان هجوم العدو ضربة مفاجئة .. فقد علموا أن جحافلهم تندفع بسرعة نحو المدينة . وأنه لن تمضي ساعات معدودة حتى يكون الحصار قد ضرب حولها .

وقضى الرجل طيلة اليوم في جهاد مستمر ... فلم يهدأ لحظة

واحدة .. إذ كان عليه أن يتحصن بجنوده فى إحدى القلاع ، وأن يرسل جزءاً منهم للقاء العدو لمقاومته ولتعطيله قدر المستطاع حتى تتخذ فرقته مواقعها الدفاعية .. ثم يترد الجنود بعد ذلك مع بقية فرقته فى داخل القلعة .

وأقبل الظلام .. فكان كل شئ على تمام الأهبة .. واطمأن الرجل إلى سلامة خطته ، وارتدت مقدمته سالمة بعد أن عرقلت سير العدو ، وجلس هو فى حجرته فى أحد الأبراج العالية ، وقد أحس بأن التعب يكاد يقتله .

وكان أو ماقفز إلى رأسه . هو تلك المرأة التى تركها فى فراشه .

« المرأة التافهة » !! ... أتراها حقاً ما زالت فى نظره تافهة ؟ لو قيسست بما كانت عليه فى الليلة الماضية فإنها تكون كل شئ .. إلا تافهة .. لقد كانت حارة .. فياضة بالشعور .. فاتنة .. ساحرة .. مرهفة الحس .

ومع ذلك فقد أحس فى نفسه بالخوف منها .. لقد أقلقه ذلك الشعور الجارئ الذى يحس به نحوها ، وأفزعه ذلك الشك الذى يحتمل فى قلبه .. إنه لا يطمئن إليها ... إنها امرأة ليلة .. لا عاشقة عمر .. إنها لن تمنحه دائماً .. ذلك الإحساس المرهف الذى أعطته إياه لأنها ستعود كما كانت دمية بين عشاقها والمعجبين بها .

وأخيراً صمم على ألا يحاول لقاءها ، وأن ينسى ما كان من أمره وأمرها .. ويقتل في نفسه ذلك الحنين إليها .

وقام إلى فراشه ، ولكن الحارس طرق بابه وأخبره أن امرأة تريده .. ولم تمض لحظات حتى دلفت المرأة إلى الحجرة .

ومرّت الأيام .. والرجل غريق في الهوى ، وأشعرته المرأة أنه لم يخطئ في شيء كما أخطأ في تسميتها « التافهة »

واستمر العدو في حصار المدينة ، ولكن هجومه قد رد فاشلاً .. وباءت محاولته في الوصول إلى المدينة بالخيبة والخذلان .. حتى وصلت الأنباء ذات يوم بأنه استطاع التسرب من ناحية القلعة التي يدافع عنها الرجل .. وحشد الجنود في تلك الناحية ، ووصلت الامدادات من كل حذب وصوب .. حتى أمكن أخيراً إيقاف الهجوم ، وأسر كل الجنود الذين استطاعوا التسرب إلى داخل المدينة .

وفتش الأسرى .. وبدأ استجوابهم لمعرفة كيف استطاعوا التوصل إلى سر تلك النقطة الضعيفة التي تسربوا منها ...

وأخيراً وجد مع قائدهم .. صورة من مواقع الدفاع عن المدينة ! .

ياللهول .. لقد حدثت خيانة ، وممن ! من قائد القلعة نفسه فقد كانت صورة الخطة ... هي نفسها التي كان يحتفظ بها في حجرته الخاصة .

وسيق الرجل إلى المحاكمة .. وهو فى ذهول شديد ، ترى
كيف انتقلت الأوراق من حجرته إلى أيدي الأعداء ؟

وساوره شك سرعان ما أبعدته عن خاطره .. أيمكن أن تكون
هى التى دفعت بالأوراق إلى أعدائه .. ولكن ما صالحها فى ذلك ،
وماذا يعود عليها مثل هذا العمل ؟ .. لا .. لا يمكن أن تكون هى .
وكانت التهمة هى الخيانة العظمى ، وكان مصير الرجل المعروف
هو الإعدام ، ولكن لم تمض لحظات على بدء المحاكمة .. حتى
فتح الباب ودخلت منه المرأة .

كانت ساكنة هادئة .. ولم يكن يبدو على وجهها أى نوع من
المشاعر والإحساسات ، ولم ترد على أن قالت ببساطة : —

— إنى أنا التى دفعت بالأوراق إلى أيدي الأعداء .. لقد كنت
أهوى قائدهم الذى أسر ، وكنت أتصل به سراً . وقد سألتنى
الأوراق فدفعت بها إليه .

وأحس الرجل بطعنة شديدة .. لقد كان خيراً له أن يعلم .. من
أن يسمع مثل ذلك القول الذى قالت .. لقد باعته المرأة بشمن
بخس .. لقد كان أحق ... حيث اندفع فى حبها ، وكان أحق
حين ظنها لم تعد بعد « تافهة » .

وأطلق سراح الرجل ولكنه جرد من رتبته .. وسيقت المرأة
للموت لتلقى جزاءها .

وفى ظلمة الليل خرج الرجل من القلعة مطاطيء الهامة موجع القلب ..
محطم الجسد .. وبدا له فى الظلام جسد المرأة يتأرجح ويهتز ،
وقد تدلى فى الفضاء بعد أن أحيطت رقبته الجميلة بالحبل الخشن .
وأحس بآس شديد وحزن بالغ .

لشد ما خذلته المرأة وبددت إيمانه بالحياة وبكل ما فيها .
لقد بددت إيمانه فى نفسه .. وفى الوفاء ، وفى الخير . وفى
كل شعور صادق عميق .

لقد خدعته خدعة كبرى .. بأنه صدق حقاً أنها تحبه . وإنها
كما قالت له ذات مرة لاتمنى أكثر من أن تضحي بنفسها فى
سبيله .

الأحمق .. المغرور ! !

لقد صدقتها وقتذاك .

ولكنه كان معذوراً .. فقد كان حديثها ملؤه الحرارة
والإخلاص .. ومع ذلك فلم تمض ليلة حتى ضحت به وبوطنها
وبكل مبدأ وخلق .. ومن أجل غريب تدعى أنها قد أحبتة .

وملأت المرارة نفسه وهمس فى سخرية وهو ينظر إلى الجسد
المعلق المتأرجح فى الظلمة :

- أحبتة ! ! ... أنت تحبين .. أيتها الشيطانة الكافرة إن

طبيعتك هي الخيانة وديدتك الخديعة . إن الحب شعور أسمى من أن تحس به .

وألقي على الجسد نظرة أخيرة ثم أشاح بعينه في ازدراء وعاد السير في تناقل وبطء .

ولاح له السجن الذي ضم بين جدرانهِ أسرى العدو . وبدأ له في الظلمة وقد تعالت جدرانهِ السوداء كأنها شبح مخيف ...

ولم يكد يتقدم بضع خطوات حتى سمع صوتاً وراء قضبان إحدى النوافذ وأبصر بعض الأسرى يطلون على الساحة ويرقبون الجسد المعلق .

وسمع أحدهم يهمس للآخر وهو يشير إلى الجسد :

— هذه المرأة لاشك مجنونة فما أبصرتها قط قبل اليوم ، ومع ذلك فقد أدعت أنى على صلة بها وأنها دفعت إلى بالأوراق لأنها تهواني ... مع أنى أجزم لك بأنى حصلت عليها من أحد الخدم نظير أجر باهظ ... ياللممقاء ؟ . لقد ألفت بنفسها إلى التهلكة دون أى سبب .

ولم يكد صاحبنا يسمع حديث الرجل حتى كاد يصعق ، وتسمر فى مكانه .

أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟ .. أيمكن أن تكون المرأة قد ضحت بنفسها من أجله ؟ .. أيمكن أن تكون قد ألفت بنفسها إلى التهلكة .. لتنفذه من هذه التهلكة !؟

أيمكن حقاً أن تكون صدقت وعدّها وضحت بنفسها في
سبيله .

وأحس الرجل أنه على شوك أن يجن .
وتقدم في سكون نحو ذلك الجسد المعلق في الهواء حتى وصل
إليه وقطع الحبل ، وأمسك بالجسد يحتضنه بين ذراعيه .
أهذه هي المرأة « التافهة » ... أم أن الحياة من بعدها هي
التافهة ؟

وشوهد الرجل يحفر بعد ذلك قبراً ليرقد الجسد فيه ، وعجب
الناس لما أصابه من فجيرة على المرأة الخائنة .. وأصابته جنة فلم
يفارق القبر حتى ثوى فيه وكتب الناس على القبر : « هنا يرقد
الرجل المجنون .. والمرأة التافهة » . يالهم من تافهين ! !

حَدِيثُ بَكِينٍ

سأحبك حتى أفقدك .. سأحبك ولو ليوم أو
لساعة .. فخير لى أن أعيش ساعة بحب من أن
أعيش دهرًا بغير حب ...

هذه القصة .. مجنون فريد فى نوعه .. فلا هو بشاعر
مجنون يهيم فى البقاء .. ولا فنان يعيش بجسد فى الأرض
ورأس فى السماء ، بل هو رجل لا يكاد يختلف كثيراً عن غيره من
عقلاء الناس .. إذ ليس به من مظاهر الشذوذ شئ .. بل تراه على
أتم ما يكون من الهدوء والسكون والحكمة والروية .

رأته أول مرة ، وقد جلس على صخرة من صخور الشاطئ
قبيل الغروب .. ونظرت إليه فرأته قد أمسك بصندوق صغير ،
وأخرج منه شيئاً استطعت أن أميز فيه جدائل طويله من شعر كأنه
خيوط الذهب ، ثم وضعها برفق على ركبتيه وأخذ يمشطها بعناية
بالغة ، ثم رفعها بين يديه وضماها بشوق ودفن فيها وجهه ، وسادت
فترة صمت عجيبة . وراح الرجل فى شبه غيبوبة ، حتى شعرت
برجفة خوف تسرى فى جسدى ، فانتفضت واقفاً ... وأحس
الرجل بحركتى ، فأعاد الشعر ببطء إلى الصندوق ، ونهض من
مكانه واختفى فى الظلمة .

ورأيت الرجل بعد ذلك مرات عديدة فى نفس المكان على نفس

الصخرة ، وتكرر منه فى كل مرة ما رأيته فى المرة الأولى ، حتى دفعنى حب الاستطلاع إلى السؤال عنه .. فقبل لى إنه مجنون . وفى ذات مرة غامرت بالجلوس إليه ومجاذبه أطراف الحديث ، ودفعنى إلى ذلك ما رأيته من شدة هدوئه وسكينته واعتقاده بأن جنونه لا يمكن أن يكون من ذلك النوع الخطر الذى يخشى المرء شره .. وكان حديثه إلى حديث رجل عاقل .. فكدت أنسى ما تروهمته من جنونه ، حتى وجدته يقف فجأة ثم يتركنى إلى صخرة بعيدة ، ويدأ فى إخراج الشعر وتمشيطة .

ومرت الأيام فبدأ الرجل يأنس إلى حتى لم يعد لديه ما يمنع من أن يخرج الشعر أمامى ويحنو عليه كما يحنو على معشوقته ، فحاولت عندئذ أن أستدرجه ليقص على قصته ويفضى إلى بما خفى من أمره ، ولكنه كان يلوذ بالصمت ويستغرق فى تفكير عميق . وذات يوم اشتد ريحه ، وعلت أنوؤه ، جلست مع الرجل أرقب زبد البحر يعنو الصخور فيصينا رذاذه بين حين وآخر ، وفجأة أحسست بيد الرجل تقبض بعنف على كتفى ، وسمعته يهتف بصوت أجش :

- انظر ! إنها هى .. ألا ترى ذلك الشيء الذى يطفو على سطح الماء ؟ . إنه رأسها .. وذلك الشعر شعرها فإنى لا أخطئه ، ولو كانت بين آلاف النساء .

ونظرت إلى حيث أشار ، فإذا بشيء يطفو على سطح الماء ،

أغلب ظني أنه بعض عشب البحر ... ولم أدر كيف أجيب الرجل ،
وخشيت أن أوقفه على وهمه ، فيلقى بنفسه في اليم لانقاذ ذلك
الشيء الذي ظنه رأس امرأة ، ولكنه لم يترك لي فرصة الإجابة ،
فقد رأيت ذراعه تسقط إلى جانبه وسمعت منه آهة خيبة وخذلان ،
ثم قال في أنين موجع :

- ياللحمق ... لقد نسيت أنها قد أضحت بلا شعر .. إن
شعرها هنا في هذا الصندوق ، وهو كل ما استطعت أن أنقذه
منها ... يا للذاكرة الخائنة .. يخيل إلى أنني قد أصبحت مجنوناً
حقاً ... إذ كيف نسيت أنها قد أصبحت الآن رمة في قاع البحر !
وأحسست أن بالرجل رغبة في أن يقذف ببعض تلك الجمرات
التي تتأجج في صدره ... لقد كان به - على غير عادة - حنين
إلى الحديث ، ولهفة على أن ينبش حطام ذكريات راقدة في
أحداثها ، ولم أجد خيراً من أن ادعه يسترسل في حديثه ، وقلت
له أستحبه :

- خفف عن نفسك يا صاحبي .. فكلنا مصيرنا إلى رمة .. إما
بقاع البحر أو بيطن الأرض ، حدثني عن صاحبك .. كيف
كانت ؟ وكيف صارت ؟

وصمت الرجل برهة ، ثم قال كمن يحدث نفسه :

- كيف كانت ! وكيف صارت ! ! لو بحثنا عنها هنا
(وأشار إلى صدره) لوجدناها قد صارت إلى خير مما كانت .

ففى كل يوم يخلع عليها القلب حلة فاتنة من حنينه وأشواقه ..
ولو بحثنا عنها هنا (وأشار إلى جوف الماء) لوجدنا قد صارت
كأنها ما كانت .

وسادت فترة سكون أخرى .. ثم تمت بصوت خافت :
- دعنى أولاً أصفها لك ، فمن العبث أن أروى لك قصتها دون
أن يكون لها فى رأسك صورة واضحة .. وإلا أتهميتى بالجنون كما
فعل غيرك من العقلاء .

رأيتها أول مرة صبية لوحتها الشمس ، فتركت فى وجهها سمره
عجيبة فاتنة ، زادتها فتنة عينان خضروان كأنهما عينا هر ، ولو
لم أر سوى وجهها ، لما تخيلت إلا أنها طفلة لا تعدو العاشرة ،
ولكن جسدها كان يكذب وجهها ... فذلك الصدر الناهد ، وتلك
السيقان الملفوفة ، كانت تقسم أن صاحبها امرأة مكتملة الأنوثة ،
أما الشيء الرائع حقاً فكان شعرها .

ولست أدرى ما إذا كان بشعرها شيء عجيب حقاً .. أم أن
افتتاني به كان نوعاً من شذوذ الهوى .. وجنون العشاق .. ولكنى
أؤكد لك أنى ما رأيته مرة إلا ومددت يدي أعبث فيه وأرفعه إلى
وجهي ، فاتحسسه بشفتي وأشمه بأنفى .

كانت الصبية تطلقه على طبيعته ينساب على كتفها ويستقر على
ظهرها فى تحرر وانطلاق ، بلا جدائل ولا عقص ولا تمشيط ولا

أى نوع من أنواع العناية .. ولكنه كان يتدفق من منابته كينبوع من الذهب دافىء حنون .

ولست أشك فى أن الصبية كانت مخلوقة عجيبة بين المخلوقات أو أقل إنها كانت بين البشر - تسبح وحدها - فى التفكير والشعور والتكوين .. لا فى الخلق ولا فى الخلق .

كانت أشبه بالحيوان البرى المستوحش .. كثير الانطلاق فى الشاطئ والشروء فى البحر ... وكانت دائمة التوهم أنها تسمع أصواتاً تستغيث بها من وراء الأمواج .

وكان المعروف بين قوم الفتاة أن بعقلها شذوذاً يدفعها دائماً إلى البحر .. ويخيل لى أنه لولا ذلك الشذوذ ، ما قدر لى أن ألتقى بها فى هذه الحياة .. ولكن أنا الذى قد أصبح الآن رمة فى قاع البحر .

وانى لأرانى الآن فى ذلك الكوخ المظلم على شاطئ البحر .. وقد بدت الفتاة فى أقصاه على ضوء ذبالة خافتة ، يحتضر فيها الضوء .. وأخذت أحقق البصر فيما حوالى ، إذ أدهشنى وجودى فى ذلك المكان ... وخيل لى أنى فقدت الذاكرة ؛ فقد كنت لا أعى شيئاً مما حولى .. ولا أكاد أذكر أى ريح هوجاء قذفت بى إلى هذا الكوخ المظلم المتداعى ، ولا من تكون الفتاة القابعة هناك بجوار الذبالة .

على أنى ما لبثت أن ذكرت كيف بدأنا الرحيل وكيف تراكمت

القوارب الصغيرة على الشاطئ كى تنقلنا إلى السفن الرابضة فى عرض البحر ؛ كنت أعمل فى ذلك الوقت بحاراً فى إحدى السفن التجارية ، وكنا على وشك القيام برحلة بعيدة تصحبنا بضعة سفن ضخمة ، مليئة بالبضائع والأموال .. وكانت المرة الأولى التى نغامر فيها برحلة طويلة كذلك الرحلة ... وإنى لأذكر منظر الشاطئ ، وقد ازدحم بالنسوة يودعننا بأعين دامعة .. وقد احتضنت كل منهن زوجها أو أخاها أو أباه ، ووقفت أنا ممسكا بزوجتى المحبوبة ، وقد تعلقت بى فى شوق ولهفة .

وتحركات السفن ، وأخذ الشاطئ يضمحل ، حتى أمحى من أبصارنا ، وسرنا فى عرض البحر تمخر بنا السفن عباب اليم ، حتى فوجئنا ذات يوم بزوجة عاتية .

فى غمضة عين ، خيل إلى أن البحر قد زلزل زلزاله ، وأخرج أنقاله . ورأيت سفينتنا تتمايل ، وتتأرجح ، ثم تأخذ فى الهبوط شيئاً فشيئاً ، وملئ الجو بدخان أسود قائم .. وأخذت قوارب النجاة تحتشد بالبحارة ، وبدأت على سطح الماء الرؤوس الطافية .. ويقع الدم الحمراء والزيت الأسود وتعلقت أنا بلوح من ألواح .. السفينة التى ابتلعها اليم وبدأت الأمواج تدفعنى بعيداً ، وقد تعلقت متشبهاً بالوح كأنه قد صار قطعة من جسدى وكأن روحى قد انتقلت إليه .

وأخيراً ، وهنت قوى ، وهدنى التعب ، وكان الظلام قد حل فاستسلمت لليأس وأحسست باللوح يفلت من بين أصابعى

المكدودة ، ولكننى سمعت صوت جسم يتحرك فى الماء ، وأرهفت السمع فإذا بالصوت يقترب شيئاً فشيئاً حتى تبينت فيه شبحاً يقبل نحوى ، ولم أحس بعد ذلك إلا وأنا فى ذلك الكوخ المهدم البالى .

تذكرت ذلك كله وأنا راقد فى الظلمة ، وهممت بالقيام فأحسنت الفتاة بحركتى ، فأسرعت نحوى وأمرتنى بالرقاد ، وسألتنى عما أطلب ، فسألتها بدورى عن تكون ؟ . وعمن أنقذنى من جوف البحر وأحضرنى إلى هذا المكان ؟

وعلمت منها أنها تسكن الكوخ مع جدها العجوز ، وأنها سمعت صوت العاصفة وأحسنت بدافع خفى يدفعها إلى الخروج إلى الشاطئ فتسللت من الكوخ وأخذت تتلمس طريقها وسط الرياح العاصفة ، حتى بلغت صحور الشاطئ ، وأبصرت الأمواج تدفع أمامها جسداً ... قد تعلق بأحد الألواح وأنه يوشك أن يهوى فى قاع أليم ، فلم تردد فى أن تقذف بنفسها بين الأمواج ، وظلت تجاهد حتى أخرجته وحملته إلى الكوخ بمساعدة جدها .

ورأيت الفتاة تبسم ... وأمسكت يدى برقة وأخبرتني أنها سعيدة بإنقاذى .

ومرت بضعة أيام عدت فى خلالها إلى كامل قواى ، وكانت الفتاة لاتفارقنى لحظة واحدة .

وهنا أحب أن أوضح لك امراً لا بد من إيضاحه .

لقد أخبرتك أنني متزوج ، وأزيد على ذلك أن بينى وبين زوجتى حباً عميقاً ، وأنتى كنت أرى دائماً أن من الخير للمرء أن يكون فى هذه الحياة وفياً أميناً ، وعلى ذلك فلم يكن هناك مايدفعنى قط لأن أحاول الزج بنفسى فى واقعة غرام بينى وبين الفتاة ، وكنت أحاول دائماً أن أدخل فى روعها وروع نفسى أن الفارق بين عمرينا شاسع ، وأن مكاننا من بعض مكان الأب من الابنة .

ولكننى رغم كل ذلك ، وقعت فى حبها ١١ وأصبت به تماماً ، كما يصاب المرء بمرض .. ولو كان لنا أن نلوم المحموم ، لأنه أصيب بحمى .. فلك أن تلومنى لأننى أصبت بحب الفتاة وأنا رجل متزوج . .

وجلست الفتاة ذات مرة تحدثنى عن آمالها وأمانيتها .. وقد وضعت كفها الصغير بين كفى .. وتهدل شعرها الذهبى على كتفيها وذراعيها .. وأحسست بجسدها يقترب منى . ثم وضعت يديها على كفى ، ورأيت عينيها الخضراوين تتطلعان إلى بنظرات بعثت الدم حاراً فى عروقى .

وتمالكت نفسى فأبعدتها عنى ، ولكنها عادت تقترب حتى شعرت بحرارة أنفاسها تلمح وجهى .. فحاولت أن أكتفى بمس جبينها بفى حتى تكون قبلتى قبله أب لإبنته .. ولكن الفتاة دفعت جبينها للخلف ... وسرعان ما رفعت شفتيها فألصقتهما بشفتى .. وأحسست بذراعيها الصغيرتين تحيطان بى .

ولا حاجة بي إلى أن أخبرك أنى رجل مجرب لأمر الحب ،
وأن هذه القبلة لم تكن أول قبلة أذوقها من امرأة . ولكنى أقول
الحق إنها كانت أعذب قبلة ذاقتها شفتاى ... لقد ملأتنى نشوة ،
فرأيتنى أنسى كل شئ ، وأمسك بالفتاة بين ذراعى لأغمر وجهها
بالقبل .

وأخيراً أفقنا لنفسينا .. فرأيت ذلك الحب الذى كنت أخصاه ..
ذلك الحب الذى لا طائل من ورائه قد وقع .. وأخبرتها أنه لا أمل
فى حبنا لأننا لابد سنفترق قريباً .. فسأعود فى أول سفينة إلى
زوجتى ، وخير لها ولى أن تكف عن حب رجل متزوج .

ورأيت الفتاة تنظر لى وتضحك فى سخرية ثم تقول :

— ماذا تعنى بمتزوج .. أتعنى هذه العقود التى يكتبها الإنسان
فيربط بها رجل بامرأة مدى الحياة ؟ ياللسخف !! أظن هذه
العقود تمنعنى من أن أحبك أو تمنعك من أن تحبنى ؟ .. لا ... لا
... سأحبك حتى أفقدك ... سأحبك ولو ليوم ، أو لساعة .. فخير
لى أن أعيش ساعة بحب ، من أن أعيش دهرًا بلا حب .

ورأيت الفتاة على حق ... وعجبت للناس لم لا يعجبون من
أن يكره المرء مئات من الناس ، ويحتقر مئات منهم ، ويحترم
مئات .. ثم يدهشون أن يحب المرء أكثر من واحدة !! إنى أحب
زوجتى .. ولم يعننى هذا من أن أحب الفتاة .. ولكن هل تفر
أوضاع الحياة أمراً كهذا ؟ وهل تقبل إحداها مشاركة الآخري

لها في حينها ؟ .. لا أظن لقد كان على أن أختار واحدة .. إما الزوجة أو الحبيبة .. وكان العقل في جانب الأولى .

وبعد بضعة أيام كنا فيها مثلاً لعاشقين .. أتت إحدى السفن فأنبأت الفتاة أنني راحل ، وبدا عليها حزن عميق ومرارة أليمة .. ورأيها تصمت لحظة ثم تنبئني أنها كانت تتوقع هذه اللحظة .. وأنها لا تستطيع أن تسلبني من زوجتي ولا بد لها أن تحتل مرارة الفقرة ، ولكنها عادت ترجوني أن آخذها معي في السفينة حتى نتمتع بالهوى مدة أطول ، وترددت برهة شعرت في أنائها بالحيرة ، ولكن جنون الحب دفعني لإجابة مطلبها .. وعلى سطح السفينة أذاقني الفتاة أعذب كؤوس الهوى ... وأخذنا في الاقتراب من بلدي .. فعاد صوت العقل يلح ويعلو ، وبدا على الوجوم ، والضيق وحرّت ماذا أصنع بالفتاة ؟ ولكنها أخبرتني ضاحكة ألا أحمل لها هماً فهي تعرف أين تذهب .

في ذات يوم وقبل الفجر استيقظت قلقاً . وبحثت عن الفتاة فلم أجدها .. وأخيراً عثرت عليها عند مقدم السفينة وقد أوشكت أن تقذف بنفسها في الماء .

ولم أستطع أن أمنعها .. فقد وصلت متأخراً بعد أن سقطت في الماء فاندفعت وراءها وألقيت بنفسي في اليم كالمجنون وأخذت أسبح خلفها .. ولكنها كانت تمنعني في الابتعاد إلى أن أصابنا

الكلل ، ورأيته على وشك أن تغرق .. فجاهدت حتى استطعت أخيراً أن أمسك بها وهي فاقدة الوعي .

ودفعته أمامي حتى رأيت أحد قوارب النجاة ، فتعلقت به ثم رفعناها إلى السفينة .

وعلى ظهر السفينة .. التفت حولي البحارة ليقوموا بإسعافها . ولكن لم يكن هناك فائدة ، فقد كانت جثة هامدة .

وكان بي وقتئذ شبه ذهول ، إذ كنت أعلم أنهم سيعيدون الجثة مرة أخرى إلى الماء ، فلم أصدق أن الفتاة العزيزة ستذهب بلا رجعة .. وتغيب في قاع اليم وتضيع بلا أثر ، ووجدتني بلا تفكير ولا إرادة ، أسرع إلى الجثة فأقص شعرها ، وأعدو به إلى حجرتي ، لقد أحسست منه بعض السلوى والعزاء ... وشيء خير من لاشيء .

ونزلت إلى الشاطيء .. وقد أخفيت الشعر في ذلك الصندوق الخشبي خشية أن تراه زوجتي فسألني عن سره ، وقد تعصف بها الغيرة فتقذف به إلى اليم ، وتحرمني منه .

سرت إلى داري شارد الذهن حزناً واجماً ، ولكنني دهشت ، إذ لم أجد زوجتي ... بل وجدت الدار خاوية مقفرة ... وسألت عنها ، فلم يجبني أحد ، وأخيراً تطوع بعض القوم فأنبأني بالحقيقة .. وأخبرني أنها غادرت البلدة مع رجل أحبها وأحبته ، بعد أن سمعت بفرق السفينة ويشت من عودتي .

وأقول لك الحق أنني لم أحزن .. ولم أغضب .. بل شعرت
بالكثير من الراحة .. حين أحسست أنني أستطيع أن أدخل إلى الشعر
وأتمتع به دون أن يحاسبني أحد ، أو يضايقني مخلوق .. لقد خيل
إلي أن الفتاه ستكون قريبة العين في قاع البحر لقد أصبحت لها
وحدها ، ويمكنني أن أضم شعرها وأقبله دون أن أخشى شيئاً .

وصمت الرجل برهة ثم رفع إلي رأسه متسائلاً :

- أتراني مجنوناً كما يراني الناس ؟

- لو كنت مجنوناً .. فأكثر منك جنوناً ... ذلك القدر الذي
يحركننا في هذه الحياة .

عبادى القلوب

إن العبادة لانتقيد بشرط ، ولا تتطلب رداً ،
إنها هي نفسها رد لنعمة سابقة ، أنى أعبد الله
الذى وهبى الحياة ، وأعبدتها لأنها أشعرتنى
بالحياة ، وجعلت لها عندى قيمة ومعنى .

القد .. هيفاء . حوراء . سرق النسيم من خطرتها
ممشوقة خفته ، واستمد الفجر الرطيب من وجهها نوره . ونشر
الورد من غبقها شذاه .

أجمل ما فيها شفتان مضمومتان يقطر منهما السخر ويفيض
منهما الشهد ..
لها قصة ..

أأقصها عليكم ؟ . أم تسمعونها من شفتيها ؟ !
من شفتيها ؟ ..

حسن .. هاكم إياها .. « القصة ، لا الشفتان » !

★ ★ ★

كان الليل ساجياً والقمر يتبوأ أريكة السماء ، ويطل على
الكائنات من عل .. وقد بدا وجه الأرض من فرط صمته كأنه قد
خلا من الحياة ، وبدت الحديقة وقد ران عليها سكون يكاد يسمع
فيه تنفس الورق ، وهمس النسيم .

وكنت قد وقفت فى شرفة القصر هاربة من صخب المدعوين
ونقيق ألسنتهم .. متسللة إلى الشرفة النائية المطلّة على الناحية
الخلفية من الحديقة المترامية الأطراف ... المتكاثفة بالأشجار ..
ووقفت متكئة على حافة الشرفة .. أرقب قمم الشجر الغارق فى
الضوء الفضى وظلاله الباهتة الشاحبة الصرعى على الأرض .. وقد
نكّون من الضوء والظلال خليط من المرئيات المبهمة المتشابهة ..
مغرقة فى صمت عميق ... كان جمال الكون ليلتذاك .. جمالا
عجيباً . جمالا غامضاً هادئاً ينساب إلى النفس فى لين حتى يأسرها
فإذا بالإنسان قد أصبح يحس بأنه جزء من ذلك الخليط الساكن
من الظلال المبهمة والأضواء الباهتة .

وبين ذلك السكون السائد والصمت المخيم وصل إلى سمعى
فجأة صوت أغصان تنكسر كأن أقداماً وطأتها .. ثم عاد السكون
يضرّب أطنابه مرة أخرى .. وعودنى الهدوء الذى بدده تكسر
الأغصان .. وأقنعت نفسى بأن مصدر الصوت لا يعدو أن يكون قطعة
تتجول فى الحديقة .

ولكنى مرة ثانية عدت أرهف السمع .. ووجدت أعصابى
المتراخية تنشط وتتخفز !

لقد عاد الصوت مرة أخرى .. عاد بطريقة استطعت أن أجزم
معه أن الأقدام المتحركة ليست أقدام قطعة . بل أقدام إنسان يتسلل
بيطء وحرص .. وازددت أرهافاً ، وأخذت أهدق فى الناحية التى

خلت الصوت قد صدر منها . فبدأ لى شبح يتحرك بين الظلام فى
حذر وخشية .

كانت طريقة حركته تبعث فى النفس الرية ، وتثير الشكوك ،
فما كان لإنسان أن يتخذ تلك المشية المتسللة فى جنح الظلام
ويسير بتلك الهيئة الوجلة المضطربة والصورة الحذرة الخائفة .. إلا
إذا كان يضمّر شراً . وينوى سوءاً !

وبدا لى فى أول الأمر أنه قد يكون أحد الخدم أو الحراس تسلل
ليسرّق شيئاً ، أو ليهرب بشيء أخفاه فى الحديقة ، أو ليلتقى مع
إحدى الخادومات أو الوصيفات فى موعد غرام !

ولكن لم يطل بى ذلك الظن حتى رأيت شبحاً آخر يتابعه بنفس
الحذر والخطوات المتسللة . واستطعت أن أميز الشبحين عندما وقع
عليهما ضوء القمر فى لحظة خاطفة وهما يتسللان من
ظل إلى ظل فأدهشنى أن أجدهما ضابطين يزيهما الرسمى الأبيض
المزركش وحذاءيهما الطويلين اللامعين .

ووقفت أرمقهما مشدوهة حيرى .. وقد تواريت خلف أحد
أعمدة الشرفة .. وأمسكت بأنفاسى من فرط الدهش والعجب .
وأنا أسائل نفسى : ماذا يدعو ضابطين مثلهما إلى التسلل إلى قصر
الحاكم فى ذلك الوقت من الليل ؟

وأخيراً استقر بهما المقام فى مكان قريب أسفل الشرفة بحيث

أضحى فى أستطاعتى أن أسمع تردد أنفاسهما المتلاحقة فى ذلك السكون البخيم .

ولم يكن من عادتى أن أسترق السمع . ولكن أى أنسانى فى مكانى - مهما بلغ به عدم الأكراث وعدم الرغبة فى الاستطلاع - كان لابد أن يرهف سمعه ويلتقط ذلك الحوار الذى دار بينهما فيما يشبه الهمس !

بدأ أولهما الحديث بتهيدة راحة واستقرار قائلا :

- حمداً لله .. إن كل شئ يسير على ما يرام ... !
- أجل .. الحمد لله الذى يسر الأمر وأزال الطوارئ والعقبات .. وجنبنا الأخطاء .. إن أى شئ بسيط كان يمكن أن يودى بنا ، ويضيع علينا كل ذلك الجهد الذى بذل .
- لم تبق إلا دقائق حتى نشعل اللغم ونعطى الإشارة بالهجوم ...
- دقائق فقط ؟ لقد ظننت أنه مازال أماننا متسع مع الوقت .
- الساعة الثانية عشرة إلا ربع .. وموعدنا منتصف الليل ، أى لم يبق أماننا سوى ربع ساعة ، نسترد فيه أنفاسنا .

ولكننا لسنا مقيدين بالثانية عشرة بالضبط ... إن الأمر متروك لتقديرنا ، وأعتقد أنه ما زال أماننا فسحة من الوقت ، ثم لاتنس أن ضيوف الحاكم لم يغادروا القصر بعد .

- وما لنا وضيوف الحاكم ؟

- أو قد بلغنا من الجبن والتذالة نحن ضباط الانقلاب وقواد الثورة ، وأصحاب المثل العليا ، إلى حد مهاجمة القصر وهو يزخر بالفتيات والنساء ... لا . لا . لا . لسنا نحن الذين نفعل ذلك ... !

- ولكننا لا نستطيع الانتظار حتى ينصرفوا ... فأنت تعلم قيمة الوقت لدينا .. إننا إذا انتظرنا بعد الثانية عشرة فسنعرض حياتنا للخطر .. وخططنا للفشل .. إن خططنا يتوقف نجاحها على أن نبدأ الهجوم قبل أن تصل فرقة الحرس ...!

- إن الوقت لم يحن بعد لوصول فرقة الحرس ... وإبلاغ نبأ المؤامرة إلى الحاكم .

لن يتأخر ذلك عن الساعة الواحدة .

ومن قال لك أننا سنتنظر إلى ذلك الحين ؟ إن الضيوف آخذون في الانصراف . وأعتقد أن انصرافهم لن يتجاوز نصف الساعة ... أى أننا نستطيع أن نبدأ الهجوم فى الثانية عشرة والنصف على أكثر تقدير .. وسيكون كل شيء قد انتهى ونكون قد استولينا على قلعة القصر قبل وصول فرقة الحرس .

- ولكن هب أن المدعويين قد تأخروا أكثر من ذلك ؟

- لا أظن .. صه . إنى أسمع أصواتاً على السلم الآخر انظر إلى الباب . إن البعض قد أخذ فى الانصراف فعلاً . إنى ألمح بينهم بعض النساء يرفلن فى ثياب السهرة .. ولكنى لا أستطيع تمييزها من بينهم . إنها لاشك ما زالت موجودة داخل القصر .. !

- من هي ؟

- الأميرة .

وسمعه ينطق باسمي !

- دعنا من الضيوف ومن الأميرة . إن الوقت قد أزف وإني شديد القلق ، ومن الجنون أن نعلق مصيرنا بحياة هؤلاء الضيوف .
أو حياة الأميرة :

- بل إن كل شيء عندي معلق بحياتها .

ماذا تقول ؟

- أقول إننا لن ننسف القصر ولن نبدأ الهجوم . حتى تخرج آمنة .

- من هي ؟ الأميرة ؟ !

- أجل . الأميرة .. لقيت الردى والحانى الله . إذا مددت يدي إليها بسوء . أو تسببت لها فى ضرر أو مكروه .

أتحبها ؟

- أعبدها .. وأعبد ذرات الثرى التى تطأها أقدامها ، أعبد النسمة التى تهب بها فتختلط بأنفسها .. أعبد النجوم التى ترقبها والشمس التى تدفئها والظل الذى يقيها ، أعبدها وأعبد من أجلها الحياة ، أعبدها وأعبد نفسى التى تعبدها .
ولكنها لا تكاد تميزك من بيننا .

- ٦٠ -

-- إن العبادة لا تتقيد بشرط ولا تتطلب رداً .. أنها هي نفسها
رد لنعمة سابقة . إني أعبد الله الذى وهبني الحياة . وأعبدها لأنها
أشعرتني بالحياة . وجعلت لها قيمة عندي ومعنى .

- معنى هذا .. أن خطتنا وثورتنا ومبادئنا معلقة بحياتها .

- الكون كله معلق بحياتها .. إني أقدم مبادئنا وأقدس ثورتنا
التي ستنقذ شعبنا من هذا الظلم والجور . وإني أقدم حياتي رخيصة
من أجل هذا كله .. أما حياتها هي .. ففداؤها كل شيء . فداؤها
أنا والمبادئ والشعب والثورة . فداؤها الأرض وما عليها .. هي
في كفة والبسيطة كلها في كفة .. لا كنت ولا كنا ولا كانوا .
ولا كان الكون إذا لم تكن هي . أفهم ما أقول ؟ أتدرك ما أعني ؟
- أجل . أجل . أفهم تماماً ، ليرحمنا الله ويعجل بخروجها إن
هذا هو أملنا في النجاة ، إنه الرجاء الذي علق به مصيرنا .. اللهم
ألهمها الخروج ، حتى ننقذ حياتنا .

★ ★ ★

واعجباه .. ! من يصدق هذا ! ؟

لو لم أسمع الحديث بأذني لقلت حديث خرافة ! ؟
أهكذا قد باتت يدي مضائر الأمور ؟ أيمثل هذه السهولة أستطيع
إنحام الثورة وإنقاذ الحاكم ومنع الانقلاب ؟
إن الأمر لا يحتاج مني لأى جهد ولا يتطلب مشقة ؟

إنه لا يحتاج شيئاً أكثر من أن أبقى ، كما أنا ، نصف ساعة أخرى .. لا أغادر فيها القصر .

نصف ساعة من الصمت والسكون يمكنني بها أن أحبط المؤامرة دون أن أكون وشيت بأحد أو خنت أحداً ..

ولكن ألا يعتبر بقائى خيانة ؟

أليس فى مجرد صمتى وسكونى وبقائى فى القصر خيانة ووشاية واستغلال لعاطفة ذلك المحب المجهول والعابد المتبتل ؟

أمن العدل أن أقابل تضحيته بنفسه وحياته .. بل بكل ما فى الوجود من أجلى .. بأن أقدمه لقمة سائغة وغنيمة باردة وأجعله يفقد حياته .. ويتهم فوق ذلك بخيانة رفاقه ومبادئه .

وهكذا أخذت الأفكار تتصارع فى نفسى .. حتى أحسست أن رأسى يوشك أن ينفجر . وأخذت أنسحب فى سكون من الشرفة إلى داخل القصر .

وكان عدد المدعوين قد أخذ يتضاءل وينكمش ... حتى لم تعد فى الصالة المتسعة سوى بضع جماعات هنا وهناك .. تتجاذب أطراف الحديث .. وارتفعت على أقرب مقعد . وأخذت أحرق فى الساعة الكبيرة المسندة إلى الحائط !

وبدأت أقرب عقرب الساعة وهو يتحرك فى هدوء مقرباً من الوحدة ، وأحسست بأطرافى تبرد وجسدى يتأقل ، إن الوقت يمر ، والسكون سائد ، لا ضجيج هناك ولا فرقة ، ولا صياح ولا

صليل سيوف ، والضيوف يتسربون الواحد بعد الآخر ، وأنا وحدي
ثابتة في مقعدى وقد علق بصرى بعقرب الساعة .

وكان الذهن يشرد بى فجأة إلى الحديقة فأتصور
الشبحين الجاثمين .. وأنصت إلى همسات يحملها النسيم الخافت :
- إنى أعبدها . أعبد ذرات الثرى الذى تطؤه أقدامها ، لقيت
الردى إن مددت يدي إليها بسوء أو مستها بضر ! .

وتخفت الهمسات رويداً رويداً .. ثم تضع مع دقائق الساعة
البطيئة المنتظمة ... وأعود إلى نفسى فجأة على صوت الساعة تدق
الواحدة !

لقد قضى الأمر وانتهى كل شئ !

وهكذا أخدمت الثورة .. وأحاط رجال الحرس بجنودها وقبض
على زعمائها وقوادها وأودعوا السجن للمحاكمة العسكرية ، بتهمة
الخيانة ، وكان هو على رأسهم !

ولم يكن هناك من يعرف الدور الذى لعبته ، ولقد حاولت أن
أقنع نفسى بأننى قد اخترت الطريق الأصوب وأنى حققت الدماء
وأُنقذت البلد من شر مستطير ، وأن بضعة القواد الذين سيعدمون -
والذين كنت مقتنعة فيما بينى وبين نفسى أنى كنت السبب فى
هلاكهم - سيذهبون لءاء لآلاف الأرواح التى أُنقذت ، والتى كان
يمكن أن تروح ضحية الثورة والانقلاب .

وحاولت جهدى ألا أترك نفسى تمعن فى الأسف عليهم والندم
من أجلهم .. وكدت أفلح فما كانت تربطنى بهم أية صلة أو
معرفة ، اللهم إلا هو .. كنت أحاول عبثاً صد طيفه وإبعاد ذكره .
إذا ما خلوت إلى نفسى والليل سكون طاف بى شبحه وأحسست
بحنين إليه .. وعاونى إليه شوق ، وخلت النسيم يحمل إلى
همساته .. ليردد فى أذنى :

« فدأها الأرض وما عليها ، هى فى كفة والبسيطة كلها فى
كفة » !

ما أسوأ ما جزيته عن حبه !
لقد صان حياتى فأهدوت دمه !

وأستمر الضمير يقرع ... والندم يخز ، والقلب يهفو ، والشوق
يشتد ، والحنين يتضاعف .. واللوعة تزداد ، حتى فقدت كل
مقاومة .. وجدتنى يوماً أطلب من الحاكم الإذن لى بزيارة السجن .
ودهش الحاكم ولكنه لم يملك أمام إلحاحى رفضاً .

وذهبت للقاءه لأول مرة بعد تلك الليلة الليلية التى لم ألمح فيها سوى
شبحه الباهت يتحرك فى الظلمة كالشياطين والتى حملت إلى
كلماته التى تذوب وجداً وتلهب جوى .

ولم يصعب على تمييزه بإرشاد القلب الخفاق ... والمهجة
المشتعلة .

ووصل إليّ صوته من وراء الجدران فسرت في جسدى رجفة ،
وأحسست بالقلب يصفق ويهفو .

وكيف أغامر بنجه وبالتفكير فيه والحزن من أجله ؟ أيه مجنونة
أنا ؟

وأخيراً رأيته ... وقف كلانا أمام الآخر وجهاً لوجه ! ونظر إلى
فاغراً فاه . ثم خر راکعاً على ركبتيه .. وهمس قائلاً :
- أنت ؟ كيف ؟ إنى لا أصدق عينى .

وسألنى فى لهفة ماذا حدا بى إلى زيارته .. وأمرت الحارس
بالانصراف ثم أمرته بالجلوس وجلست بجواره . وأنبأته بالحقيقة
بأكملها .. وبأننى وحدى السبب فى نكبتهم . وإنى كنت
جلادته !

وأطرق برأسه وأصابه وجوم شديد .. ورأيت وجهه يختلج كمن
يحاول كبت رغبة فى البكاء .

وأخيراً نظر إليّ وقال فى صوت أشبه بالأنين :

- ماذا حدا بك أن تقولى لى هذا ؟ كنت أفضل ألا أعرف !
كنت أفضل أن أموت قريباً !

إن حياته يجب أن تدفع ثمناً لكيان الأسرة الحاكمة التى أعتبر
فرداً فيها وأميرة من أميراتها ، فلو أنه قد بقى على قيد الحياة لفقدنا
كل ما نملك ولنزلنا من عليائنا ومثل بنا شر تمثيل .

لقد كان ثمة شيء يعزيني عن الفشل ويعزيني عن الهزيمة ويعزيني
عن الحياة .. شيء واحد هو الذى بقى لى ليحفظ إيماني المتبدد ،
ويقيني الذهاب .. هو أنت ، هو ثقتي بأنى فعلت من أجلك
شيء ... أنت المخلوقة المقدسة المعبودة ، كنت أشعر أن
تضحيتي فى موضعها ، وأنها لم تذهب لثمن بخس .. بل ذهبت
لقاء .. حياتك ، وما أئمن ما كانت حياتك ... أما الآن .. فما
أبخس الثمن .. ماذا بقى لى الآن من عزاء .. بعد كل ما قلت .
وأمسك يدي ونهض بى وأشار بيده الى الباب وهو يتسمم
ابتسامة ملؤها المرارة ، وهمس قائلاً :

تفضلى .. اذهبى .. مع كل ماذهب .

وغادرته مطاطقة الرأس محنية الهامة .. وملء نفسى الاحساس
بالندم المذلة ، وملء قلبى الشعور باللوعة والأسنى ..
وعدت إلى البيت ورأسى يصطخب بما فيه ، ونفسى مثقلة بما
بها .

ماذا حد بى إلى زيارته ؟ .. ولم قلت له ما قلت ؟ وماذا ترانى
أريد منه ؟

ومرت الأيام .. وأخذ موعد إعدامه يقترب .. وكلما اقتربت
النهاية استعز الشوق .. وازداد بى الحب .

فكرت ملياً فوجدتني أستطيع بسهولة تهريه من السجن وإنقاذ
حياته . فقد كان الحراس رهن إشارتى وطوع أمرى .. وهكذا

وجدتني مرة ثانية في نفس الموقف الأول .. مترجحة بين إنقاذه وأنقاذ أسرتي وعشيرتي .

وهذه المرة أيضاً ، ليس عليّ إلا أنتظر ساكنة صامتة وأتركه يذهب إلى الجلال ، وينتهي أمره .. إن هذا هو الواجب الطبيعي الذي يمليه الضمير ، فإن أى محاولة لتفريجه تعتبر خيانة كبرى .

وتذكرت قوله لصاحبه :

« إنى أقدم مبادئنا وأقدس الثورة التي مستقذ شعبنا من هذا الظلم والجور ، وإنى أقدم حياتي رخيصة من أجل هذا كله ، أما حياتها هي .. ففداؤها كل شيء .. فداؤها أنا والمبادئ والشعب والثورة » .

ذلك كان مبدؤه الذي أملاه عليه قلبه الدائب الخفاق ، ولقد بدا لي أنه كان وقتذاك على صواب .. فذلك هي شريعة القلوب ومبادئها ..

وفي الليلة الأخيرة ، عقدت عزمي وحزمت أمري ، وقلت لنفسى : لست بخير منه ، ولا أود أن أكون كذلك إنى أحب أسرتي وأحب أهلي .. كما أحب هو مبادئه وثورته وأقدم حياتي رخيصة من أجلها ... أما حياته عندي فقد أضحت كحياتي عنده ، ففداؤها كل شيء : الأسرة والأهل ، والعشيرة ، فداؤها الأرض وما عليها » .

وفي جنح الليل غادرت القصر .. متسللة إلى السجن ، بعد أن

دبرت الأمر خير تدبير ، وهيات السبيل لنجاته وفراره .. وهيات نفسى لكل ما يمكن أن يحدث نتيجة لذلك الفرار !

وفتح لى باب السجن .. وكنت أعرف طريقى إلى حجرته فاتجهت إليها رأساً .. ونظرت من النافذة فوجدت الحجرة خالية !

وهتف بالحرس :

أين ساكنها ؟

فقال لى بمنتهى الهدوء والبساطة :

- ذهب .. !

إلى أين ؟ !

وأشار بيده إلى ربوة فقراء موحشة قامت وراء السجن ونظرت حيث أشار .. فإذا بباطنها جسد مسجى لا حراك به .

وأحسست بدوار شديد وتهاولت إلى الأرض !

واحر قلباه .. لقد قضى الأمر .. لشد ما تأخرت فى حفظ مبادئ القلوب وتطبيقها . كان يجب على أن أعيها منذ سمعتها منه : لو كان الله يعيد الموتى أحياء بالدعوات . لقضيت عمرى داعية راجية .

يرحمة الله .. ويغفر لى تقصيرى فى حفظ مبادئه !

★ ★ ★

فستكر

هي قصة فتاة كان مبعث سحرها في شعرها ثم
قص شعرها ، لما فقدت سحرها لأن السحر كان
يكمن في قلبها ، وفي قوة حبها .

منكم لم تفتنه جدائل ذهبية تنساب كأنها الأمل المضيء
في دياجير ليلة اليأس حالكة السواد ؟ من منكم لم
يسكره عبير شعر سري مع النسيم شذاه فتركه نشوان يكاد من فرط
الطرب يهتف :

هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برباك
من منكم أبصر بتلك الأمواج من الشعر تندفق في لين ورفق ...
فلم يحس باللهفة إلى أن يتخللها بأصابعه وأن يغمر فيها أنفه
ويتحسسها بوجه ؟ .. من منكم أبصر تلك الشلالات المتساقطة من
الخيوط الذهبية فاستطاع أن يقاوم تيارها الجارف وفتتها الدافقة ؟ .
إذا كان هناك من استطاع .. فأنا لم أستطع !

أجل .. أبصرتها فعصفت بي ريح الشوق والحنين .. ورأيتني
أندفع إليها دون ترو ولا تفكير .. فأكاد - لولا مسكة من عقل -
أسألها أن تسمح لي بتقبيله .. أو حتى بمجرد لمسه !!
وأخذت أرقبها من بعيد دون أن أقوى على تحديد ما أبغى

منها ! ! وتساءلت ألا يمكن أن يكون كل ما أبغيه أن أسترى النظر
إلى شعرها المتدهل على كتفها .. المناسب على ظهرها وقد
انبسطت أطرافه على الرمال عندما جلست صاحبته متكئة على
الشاطئ ؟ .

وبدأت منذ ذلك اليوم أحوم حولها ، وبدأت هي كذلك تحس
منى الهيمان .. فتبادلنا النظرات مرة .. وتبادلنا الكلمات مرات ..
ثم التقينا .. وجلسنا فوق الصخرة .. وتمددت أمامي واضعة رأسها
في حجرى وكأني يخيل وضع كنوز العالم بين يديه ! وقلت لها
وأنا أتخلل شعرها بأصابعي وأدفن فيه وجهي:

- ما كنت أحسب أنني سأقع تحت تأثير شعر كما فعل بي
شعرك العجيب !

فرفعت الفتاة رأسها وسألتني متخافتة :

- أهو شعري فقط الذى أوقعك تحت تأثيره ؟

- أجل .

ألا ترى بى جميلا سواه ؟

- حتى الآن .. لا .. لقد أعشى بصرى بريقه الخاطف فلم أعد
أبصر سواه .

وزوت الفتاة ما بين عينيها فاستضحكت وقلت :

وماذا يفضبك فى أن يكون مبعث سحرك شعرك الفاتن ..

وشعرك فقط ؟ .. أليس المهم أن يكون فيك ما يسحر ويخلب
اللب ؟ إنى واثق أنك لو فقدت شعرك فسيقتل سحرى إلى أى شىء
آخر ، قد يكون شفتيك ، أو ساقيك من يدرى ؟ !

ورنت إلى بعينها الخضراوين الضاحكتين فى شىء من اللوم
والتأنيب ، فاستطردت قائلاً :

- تحضرنى الآن قصة فتاة مثلك .. كان مبعث سحرها فى
شعرها ... ثم قص شعرها فما فقدت قط سحرها لأن السحر كان
يكمن فى قلبها ، وفى قوة حبها .

- قصها علىّ إذن .

- إنها أسطورة إغريقية أقرب ما تكون إلى الخرافة .

تبدأ القصة منذ ألفى عام ، فى أوائل عام ٢٠ قبل الميلاد وقد
حاصر الرومان مدينة سيراكوزة بعد أن أعياهم دخولها .. واستمر
الحصار ثلاث سنوات دون أن تهن عزائم الجنود .. بل زادتهم
السنون عزيمة وحماسة وشاركتهم النساء فى حماسهم وشجاعتهم
وإصرارهم على الظفر والانتصار .

وكان من بين جنود سيراكوزة فتى عاشق لا تكاد تسبح له خلصة
من الوقت حتى يطير إلى معشوقته فيتزود منها بما يبعث فى نفسه
الأمل ويحى بها ما خمد من قواه وما فت من عضده . فيعود إلى
خط القتال أشد ما يكون قوة وأملاً .

وكان أشد ما يفته منها هو شعرها العجيب الذى ينساب على

ظهرها وكثفها في بريق أخاذ ، ويكاد من فرط طوله يصل إلى ساقيها .. وكانت الفتاة تحس شدة شغفه بشعرها فكانت شديدة العناية به والحرص على مظهره وما كانت تقابله إلا تركته ينسدل حولها في لين وامترحاء .

وفي ذات يوم وقف الفتى يودع صاحبه بعد لقاء جميل .. فتبينت الفتاة أن قوسه قد أصاب البلى أو تارها فقد رقت وتآكلت .. وكان من العسير تغييرها في ذلك الوقت فقد كانت تصنع من أوتار الحيوان وأعصابه .. وكان الحصار قد أتى على معظم الحيوانات التي تؤخذ منها أوتار الأقواس .

وأمسكت الفتاة بالقوس فنزعت عنها الوتر البالى .. ثم إختفت برهة وعادت بعد أن قصت خصلة من شعرها وأخذت في جدلها لتضعها في القوس مكان الوتر القديم .

وذهل الفتى في بادئ الأمر ، فقد أحزنه أن تنزع من شعرها الجميل بعض شعراته .. ولكنه عندما أمسك بالقوس وتحسس وترها الجديد وشم عبير صاحبه .. أدرك أنه يستطيع أن يصد به جنود العالم أجمعين .

وعاد الفتى إلى خطوط القتال .. ودهش زملاؤه لتلك المهارة التي بدت منه في ذلك الحين .. فما طاش له سهم قط .. وأدركوا أخيراً سر قوسه .. وانتشر الأمر بينهم .. فلم تمض بضعة أيام حتى كان كل منهم قد صنع قوسه من شعر صاحبه .

ومرت الأيام والجنود الرومان يلاقون الأمرين من دقة إصابة تلك الأقواس الجديدة التي كانت سهامها لا تخطئ مرماها ولا تحيد عن هدفها .. حتى كان ذات يوم استطاعت ثلة منهم الاهتداء إلى نقطة ضعيفة في أسوار المدينة فتسللوا منها وتبعهم بقية الجنود إلى الداخل .. وفي لمح البصر كانت المدينة قد اكتظت بهم ، وسقطت الحصون جميعها إلا حصناً واحداً استمر في المقاومة ... وكان هذا الحصن هو الذى فيه الفتى ورفاقه أصحاب الأقواس .. وأخيراً سقط الحصن تحت ثقل ضربات الرومان بعد أن سبب لهم خسائر فادحة .

وهكذا سقطت سيراقوزة بعد طول مقاومة .. ووجد جنودها البواسل أنفسهم قد أضحوا تحت رحمة الرومان ما بين قتيل وجريح ومكبل بالأغلال ... وامتلأت رؤوس الرومان بنشوة النصر بعد أن أذاقهم عدوهم كأساً أجاباً .

وعلم قائد الرومان كيف صنعت النساء لهم من شعورهن أوتاراً للأقواس ، وكيف كانت تلك الأتار سبباً فى الفتك بجنوده .. فصمم على أن يكون من انتقامه سخرية وهزؤ وأن يعطيهم درساً قاسياً .. فأصدر أوامره بجمع نساء المدينة ذوات الشعور الطويلة المسترسلة وأمر بأن تقص شعورهن .

ووجدت الفتاة العاشقة نفسها وقد سقت وسط جمع من النساء وقد أحاط بهن نفر من جنود العدو .. وأخذت تسير بينهم وقد

أصابها شبه ذهول ، فلم تلك تدرى إلى أين يذهب بها أولئك القساة
ولا ماذا سيصنعون معها .. أما ذهنها فقد شرد إلى حيث فتاها
المحبيب .. ترى أين هو الآن .. وإلى أى حال قد صار جريح
أم أسير أم قتيل ؟ كم تود لو استطاعت أن تطير إليه فتفتديه بنفسها
وتحتويه بين ذراعيها وتتركه يعذب يديه فى شعرها كما تعود أن
يفعل .

وفجأة وجدت الفتاة نفسها وقد وقفت بين الجمع فى حجرة
خشبية متسعة الأرجاء .. وسمعت بين النساء همهمة عرفت منها
أنهم ينوون قص شعورهن .. وأبصرت بامرأة قد وقفت ويدها
مقص أخذت تشحذ حديه .

وأحست الفتاة برمارة فى نفسها .. ونظرت إلى المرأة من خلال
دمعتين تترجرجان فى مقلتيها .

إنهم سيقصون شعرها الجميل .. إنهم سيطفئون بريقها
ويستأصلون مبعث السحر فيها ويتركونها كأنها رماد خامد بارد ..
لو كان الأمر يقتصر عليها هى لاستطاعت احتماله ، فهى شجاعة
قوية القلب ، ولكنه ليس شعرها وحدها ، إنه شعره هو .. إنه ذلك
الشيء الذى يحبها من أجله .. إنه منبع الفتنة التى تفتنه بها .. ترى
كيف تستطيع لقاءه بعد ذلك .. لقد كانت تحس أن ذلك المقص
لن يقص شعرها بل سيقطع ذلك الرباط المتين الذى كان يشد
بعضهما إلى بعض ! ؟ .

وبدأت المرأة تقص شعور النساء اللاتي أمامها .. ووقفت هي
ترقب بضعة رجال جلسوا في ركن من الحجرة يتلقون الشعر من
المرأة ويجدلونه ليصنعوا منه حبالا لم تستطع أن تدرك ماذا ينوون
أن يصنعوا بها .

وأخيراً جاء دورها ، فتقدمت مكتبة مستسلمة وجلست أمام
المرأة ، وقد أغمضت عينيها ، إذ كانت تحس أنها على وشك أن
يغمى عليها ... وضمت شفتيها حتى تكتم صرخات الحزن التي
كانت تصطبخب في صدرها .. وأحست بالمقص يقص خصلات
شعرها فكأنه يقطع نياط قلبها .. وبعد لحظة دفعتها المرأة عن
المقعد .. لقد انتهى الأمر .

واقعيد النسوة بعد أن أنهت المرأة من قص شعورهن جميعاً
إلى الميدان الفسيح القائم وسط المدينة .. ولم تمض لحظات حتى
أبصرن بضعة رجال قد حملوا الحبال التي جدلت من شعورهن ..
وأخذوا يصنعون منها عدة مشانق أقاموها في وسط الميدان .

وارتاعت الفتاة من هول ما رأت ، وأحست بقلبيها يعتصر في
جوفها .. ياللسخرية من يصدق أن شعرها الجميل قد أصبح حبالا
يشنق به قومها ؟ !

وبعد هنيهة أبصرت الفتاة بالجنود الرومان يسوقون أمامهم نفراً
من أسرى « سيراكوزة » البواسل .. هم أولئك الجنود الذين كانوا

يحتلون الحصن الذى استمر فى المقاومة . وعلى حين غرة لمحت الفتاة بينهم فتاها المحبوب .

وصرخت الفتاة صرخة مدوية ، وخرت على الأرض فاقدة الوعى .

وأفاقت الفتاة فإذا صمت مخيف يسود المكان .. وقامت متحاملة على نفسها كأنها شبح يسرى فى الظلام ... فأبصرت القوائم الخشبية وقد تدلت منها الجثث تترجح فى الهواء .. إلا قائماً واحداً كان خالياً من جثته ، ولم يكن يتدلى منه سوى قطعة جبل قصيرة ... وأحست بدافع خفى يدفعها إلى التقدم نحوه .. فتقدمت فى بطء وهذوء .. فإذا بجسد قد تمدد فى أسفل القوائم الخشبي .. استطاعت فى تميز فيه لأول وهلة .. فتاها الحبيب ! ! .

وسقطت الفتاة على الجسد تضمه بين يديها وتلصق وجهها بوجهه وصدرها بصدره .. فإذا بها تحس بجسده دافئاً وبأنفاسه مازالت تتردد ، وبقلبه يدق دقات خافتة .

ومدت الفتاة يدها لتحسس الجبل الملفوف حول عنقه فإذا به جدائل شعرها .. لقد قطع الجبل فهو بالفتى قبل أن تخمد أنفاسه ! .

أتراها محض مصادفة ؟ .. أم ترى قد سرى إلى الجبل من صاحبته سحر جعله يترفق بصاحبه .. فكان شقيقاً حنوناً فلم يشد على عنقه .. وهو به حتى لا يورده موارد العطب ! ! .

لقد فتح الفتى عينيه ببطء .. فوقع بصره على فتاته تحنو عليه
فى رفق وشغف .. وأبصرت منظرها غريباً .. لقد ذهب شعرها .
وهمست فى أذنه :

ألا ترانى جميلة ؟

وهمس الفتى :

- ما رأيك قط أجمل مما أنت الآن .

أجل لقد كان شعرها مظهر سحرها .. فلما ذهب شعرها .. بقى
السحر كامناً فى قلبها وقوة حبها .

ونظرت إلى الفتاة فإذا بها تنظر إلى نظرات حالمة تائهة ،
فانحنيت عليها بوجهى ومسست شفتيها بشفتى ، فسمعتها تهمس
متسائلة :

- أيمكن أن يكون فى الحقيقة شىء كالذى قصصته على ؟

- فهمست فى فمها :

- ولم لا !!

أحلام المسلام

إن آخر أمنيائي الجامعة المجنونة .. أمنية
أعلم أن القدر قد أبعدنا عني .. أما كيف
حققت هذه الأمنية فعمشت بها في الأحلام زماناً
رغداً ، فذلك ما أقصه على سبل التسلية
والفكاهة .

ضفاف النيل .. في ليلة ساد فيها السكون ، وعم
على الصمت ... وسرى الفتر في أعضاء الكون ، فأخلدت
الكائنات إلى الدعة ، حتى النسيم كف عن السريان ، فما عاد يسمع
لأوراق الشجر حفيف ولا خشخشة .. وبدت الطبيعة كأنها في
غفوة ، أو في حالة إغماء .. فكل ما فيها ، وما حولها ، راكد لا
حرك به خامد لا حياة فيه .

وأنساب الزورق على صفحة الماء الملساء المنبسطة .. وأخذ
المجداف يتحرك بين يدي الملاح ، فيمس الماء في لين وبشقه في
رفق كأنما كان الرجل يخشى أن يفيق الكون من هجمته ، ويستيقظ
من ضجعته .

وألقي الزورق منساه على الشاطئ ، أمام كوخ منفرد متواضع ..
وربط الملاح زورقه في جذع شجرة ، وخطا ببطء نحو الكوخ ،
وقد أخذ ينددن في صوت خافت ، إحدى الأغنيات الجميلة
الهادية .

كان ذلك منذ عهد سحيق القدم .. حوالى العام الثلاثمائة قبل الميلاد .. وكان فتانا الملاح يكسب قوته من نقل الناس من شاطئ إلى آخر ... أو تهئية نزعات قصيرة لهم فى عرض النهر .. وكان أصحاب القصر القائم أمام كوخه فى الشاطئ الآخر كثيراً ماينفحونه بهبات جزيلة ، لقاء بعض الخدمات التى يؤديها لهم ، أو مكافأة له على الخروج بهم فى لىالى الصيف المقمرة للنزهة فى النيل .

ولم يكن الفتى فى قرارة نفسه ليقنع بعمله هذا ، أو يرضى عنه .. فقد كان يحس أنه لم يخلق لأداء مثل هذا العمل التافه ، وكان موقناً أن حياته لايمكن أن تستمر على هذه الوتيرة ، وأنه لابد مرتفع إلى حيث ينبغى أن يكون .

ولكن الأيام كانت تمر ، والفتى كما هو .. يضرب الماء بمجدافه فى سكون وتؤدة ، حائراً بين الشاطئين ، شادياً مترنماً ، يأوى آخر النهار مرقده فى كوخه الحقيق .

وكان الفتى على حق فى ظنه بنفسه .. ولم يكن مابه غروراً أو ادعاء .. فقد كان فتى عجيب الخلق فى باطنه وظاهره .

أما ظاهره فقد جمل الله خلقه .. إذ كان وسيم الوجه ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، مفتول العضلات ، ولو كان القدر قد أنصفه ، من حيث مظهره ، لوضعه موضع ملك من الملوك ، أو أمير من الأمراء .. أما فى باطنه فقد كان ذكى الفؤاد ، صادق

الحس .. شاعرى النفس ، مرهف الشعور .. يستهويه الفن ..
ويسكره الجمال .

وكان الفتى يحس أن الشعور المتأجج فى نفسه يذهب هباء ..
فقد كانت رقة حاله ، وحقارة عمله ، تطفئ عليه ، فتخمده كما
تخمد الجمرة بحفنة من الثرى .

كان الفتى بعيد مدى الخيال ، فبدأ يقنع من حقيقة الحياة
بأحلامها ، وأخذ ينطوى على نفسه ويعيش بها فى عالم آخر رسمه
هو كما يود أن يكون ، وأحس السعادة تغمره ، فقد وضع نفسه
فيما تمنى أن توجد فيه .. وأنصفها حيث ظلمها القدر .. وبدأ
يعيش بها فى جو جميل من الأوهام ، وقصور بللورية من أحلام
عذبه نفخ فيها من روحه الشاعرية أنواراً ساطعة لامعة براقه .

وأخذ الفتى يطير على أجنحة الوهم إلى عالم الخيال فنال
كل ما كان يحلم به .. وكان يقضى طيلة يومه فى مرح وغناء ،
وكان عذب الصوت شجي ، حتى إذا ما أقبل الليل عاد إلى كوخه ،
فامتطى الشجرة العجوز التى تحنو عليه ، وأسند ظهره إلى أحد
فروعها ، ورنا يبصره إلى السماء ، سابحاً بين النجوم ، واستغرق
فى أحلامه ، حاملاً نفسه إلى دنيا أخرى تحقق أمانيه .

وفى ذات ليلة رسا بزورقه أمام القصر وكان القمر يسطع فى
كبد السماء ، وأهل القصر ييغون النزهة .. وكان الفتى يصلح

المجداف في موضعه عندما أحس شخصاً يقفز إلى الزورق ، فنظر خلفه ، فإذا بابنة صاحب القصر قد جلست في مؤخرة الزورق .
وحياها الفتى ، ثم وقف ينتظر .. فسألته الفتاة :

ماذا تنتظر ؟

البقية يا سيدتى .

- البقية لن تأتى .. فأبى مشغول .. وأمى متوعكة .

وبدأ الزورق يسير ، وقدران على راكبيه صمت عميق ..
ولاحظ الفتى أن الفتاة مطرقة يبدو عليها الوجوم والحزن فقطع حبل الصمت بسؤاله :

مالسيدتى الليلة يبدو عليها الحزن .. ترى هل هناك ما سبب كدرها ؟

وصمت الفتاة برهة .. فقد كانت راغبة عن الحديث .. ولكنها لم تكن تود أن تسيء إلى الفتى .. فأجابته فى اقتضاب :

- وهل تخلو الحياة مما يسبب الكدر ؟ !

- أى حياة تقصد سيدتى ؟ إذا كانت تقصد حياة أمثالنا فهى لاشك لن تخلو من الكدر ، لأنها مليئة به .. أما حياتكم أنتم فلا أدري من أين يأتيها الكدر !

- لا فرق بين حياة وحياة .. فالكدر موجود هنا وموجود هناك .

- على كل حال يا سيدتى ، إذا كان لديك ما يسبب كدرك ،
فأفضل طريق للتغلب عليه ، هو أن تفعلى مثل ما أفعل .
ولم تمالك الفتاة نفسها من الضحك وسأته فى تهكم :
- وماذا تراك تفعل ؟

- مادام لدى المرء شجرة ، وفى السماء نجوم ، فكل ما فى
النفس من أحزان وأشجان يمكن أن يصبح فى لمح البصر هشيما
تذروه الرياح .

ونظرت الفتاة إلى صاحبنا الملاح فى عجب ، وخيل إليها أن
الفتى قد احتسى بعض الراح فأخذ يهذى بما لايعى ..
ولكن الفتى أردف متمماً حديثه :

- لست أقول إلا الصدق ، وما رأيت هناك أنجع من طريقي
هذه فى إزالة الهموم .. ففى كل ليلة عندما أعود إلى الكوخ ، أسند
ظهري إلى الشجرة العجوز الوفية ، وأصبح يبصرى فى نجوم
السماء ، فأنسى دنيانا هذه ، وأنتقل إلى عالم آخر فيه كل ما افتقدته
فى عالمنا الحقير الوضعيع ، وأحصل منه على كل ما حرمته فى هذه
الدنيا .. كم من ليلة مرت على وأنا ملك متوج ، يحف به الأمراء
والكبراء ، ويركع أمامى الخدم والعبيد .. وكم من ليلة كنت فيها
قوياً باطشاً ، ترهبنى الجبابرة ، وتخشاني الأسود الكاسرة .. وكم
من ليلة عشت بين الغيد الحسان ، ونجاوب العيدان ، والخمر
المعتقة والاطعمة الشهية .. ما تمنيت شيئاً إلا وحصلت عليه فى

عالم الأمانى ، وما أزعجنى أمر إلا ونسيته فى دنيا الأحلام ..
وهكذا تريننى يا سيدتى قد سخرت من القدر الساهر وعبثت بالدنيا
الهائلة ، فلا أفيق من الأحلام إلا ونفسى خالصة من كل ما يشوبها
من كدر وحزن .

وكانت الفتاة تنصت إليه ، فلما انتهى من الحديث هزت رأسها
فى ببطء وقالت :

- لا يا صاحبى ، إنك جد مخطئ .. كان أولى بك أن تقول :
إنك لا تكاد تفيق من أحلامك ، حتى تجد نفسك قد هويت من
حائق ، فإذا بك حيث كنت لحيث أردت أن تكون .. وإذا
بشعورك بالحرمان يشتد عن ذى قبل .. وإذا بالقدر الساهر يمعن
فى سخريته ، والدنيا الهائلة تزيد من هزلها وعيها .

- هذا هو الطمع بعينه .. ألا يكفى أن نسعد بالأحلام فى الوقت
الذى نحلم فيه حتى تريد أن تضمن لنا الأحلام سعادة دائمة ..
وأى شئ من الحقائق فى هذه الدنيا لا تنتهى لذته بانتهائه .. ! كل
شئ منتهى بئس ، ولذته مصيرها إلى الفناء .. فلم نحزن إذا انتهت
لذة كسبناها فى الخيال ؟ ! .

لا ياسيدتى .. لا يكفيننا أن تكون الأحلام والأمانى :

« منى إن تكن حقاً أحسن المنى وإلا فقد عشنا بها زمناً رغداً ،

نعم يا سيدتى ، لقد عشت بها حقاً زمناً رغداً ، وهذا هو كل ما أريد .

وأعاد الملاح الفتاة إلى دارها ، وكان قد سرى عنها ، وذهب ما بنفسها من حزن فودعته وهى تقول ضاحكة :

- ترى ماذا ستكون الليلة ملكا ؟ أم قاهر جيايرة وأسود ؟
- لا ياسيدتى ، لقد فرغت من تلك الأمانى .. إن عندى أمانى جديدة أعذب وأحلى .

وخرجت الفتاة بعد ذلك عدة مرات تنزه وحيدة مع الملاح ، فأطربها حديثه ، وأعجبته آراؤه .

وفى ذات ليلة ، والزورق ينساب فى هدوء ، وكل ما فى الكون يبعث فى النفس طربا وفى الفوائد بهجة وحبورا ... سألت الفتاة الملاح :

- حدثنى عن آخر أحلامك فوق شجرتك العجوز وتحت نجوم السماء .

وأطرق الفتى برهة ، ثم رفع رأسه وسألها :

- أتريدنى. الصديق ؟

- لو لم أكن أريده لما سألتك شيئا !!

- إن آخر أمنيائى الجامحة المجنونة .. أمنية أعلم أن القدر قد أبعداها عنى ، كما أبعد هذه النجوم التى تلمع فى السماء .. تلك

هي حب فتاة .. سأقول لك الحق كله .. فكما أنتى لا أخشى أن يعلم الملك أنتى أحلم أن أكون ملكا .. لأنه سيضحك من شذقيه ، فكذلك لا أخشى أن أقول لك إن هذه الفتاة هي أنت ... لأن ذلك مجرد خيال أو أمنية .. لا تستحق من سيدتى إلا الضحك .. أما كيف حققت هذه الأمنية ، فعشت بها فى الأحلام زمناً رغدا ، فذلك ما أقصه لك على سبيل التسلية والفكاهة .

تخيلت يا سيدتى أنى رحلت إلى بلاد بعيدة نائية .. ثم عدت منها بجيش عجيب من القبيلة الضخمة الهائلة ، وغزوت بها هذه البلاد ، والتقيت بجيوش الملك ، فحطمتها القبيلة وصرعتها فى غمضة عين .. وذلت لى الأعناق ، وطأطأت الهامات .. وصرت ملك البلاد لاشربك لى ولا منازع ، وأمرت رجالى أن يسبقونى إلى القصر الملكى .. وامتطيت ظهر أحد القبيلة ، وذهبت إلى أعرفه يشرف على النيل وتركت الغيل بعيداً حتى لا أخيف الفتاة .. ثم قفزت من سور الحديقة ، فإذا بها قد جلست وحيدة فى إحدى الشرفات وكان جمالها فياضاً .. وسحرها لايقاوم ، وقد بدا على وجهها الهدوء الذى أعشقه فيها .. ودهشت الفتاة حينما رأتى ، وبدا لى أنها تحبنى هى الأخرى ، فقصصت عليها القصة ، وطلبت إليها أن تكون ملكة .. وشعرت بالسعادة تملأ جوانحي عندما أخبرتنى أنها تفضل أن تكون زوجتى قبل أن تكون ملكه .

ولم يكد ينتهى الملاح من قصته ، حتى استغرقت الفتاة فى

الضحك ، وكان الزورق قد وصل إلى الدار ، فقفزت منه الفتاة ،
وحيت الملاح قائلة :

- لم أر ألطف من الطريقة التي تحقق بها أمانيك .. ولكنك
فى الواقع تبالغ كثيراً .. فالمسألة لم تكن تحتاج إلى فيلة ، ولا
جيوش ، ولا صراع ولا قتال ! .

واختفت الفتاة فى الظلمة ، وعاد الفتى يشق المياه بزورقه .
وأثبتت الأيام للفتى بعد ذلك أنه قد بالغ حقاً فى الطريقة التى
حقق بها أمنيته فى الخيال ... فقد رأى أنها تحققت فى الواقع ...
ورأى نفسه يقفز من السور حقاً ، ويجلس مع الفتاة فى الشرفة
يتبادلان الهوى ، ويتطارحان الغرام ، دون حاجة إلى أن يأتى إليها
على ظهر فيل مع جيشه الضخم فقد كان يأتى بزورقه المتواضع ،
ودون حاجة إلى أن يقهر الجيوش ، ويعتلى العروش ، فقد كان لا
يزال .. كما هو ... ملاحاً فقيراً ! .

ووقعت الفتاة فى حبال الملاح ، وغمرها الهوى فى فيض من
النعم ... وكانت تشعر أن حياتها قد خلعت إلا من هذا الملاح ،
فهى لا ترى غيره سواء غاب أو حضر ... وكانت تحس السعادة
طيلة يومها ، لا لشيء إلا لأنها ستلقاه فى المساء .

وفى ذات ليلة تأخر الفتى عن مواعده ، فقلقت الفتاة ... ثم
سمعت فى الخارج بعض الضجيج ، فأرسلت خادمتها لتستجلى
الأمر .. فعادت الخادمة بعد لحظة وأنبأتها أن الحراس قد وجدوا

لصاً يحاول تسلق السور .. وأنه حاول الفرار ، فصوب إليه أحدهم سهماً أرداه صريعاً .. وهم يقولون إن اللص لم يكن سوى الفتى الملاح ! .

وذملت الخادمة عندما رأت سيدتها تهوى إلى الأرض لا حراك بها ... وقد علت وجهها صفرة مخيفة .

★ ★ ★

وسرت بين القوم بعد ذلك إشاعة أن ابنة صاحب القصر قد أصابها مس من جنون ، فهي أبداً ذاهلة واجمة ، تائهة شاردة .. لا تنطق ولا تتكلم إلا ساعة من ساعات المساء ، عندما تذهب إلى إحدى الشرفات ، تنظر منها إلى الحديقة كأنها تنتظر شيئاً ... ثم تأخذ في التحدث إلى نفسها بصوت هامس خافت .

وتكلمت الفتاة لأول مرة ، فطلبت أن يأتيها بأحد القوارب .. وسار القارب بالفتاة الحزينة الذاهلة ، حتى وقف أمام كوخ الملاح ، فنزلت الفتاة ، ورأت الكوخ قد علاه البلى والخراب .. والشجرة العجوز قد دب فيها الفناء .

واقتربت الفتاة من الشجرة الجرداء الذابلة الأغصان المتساقطة الأوراق حتى أسندت إليها ظهرها وتطلعت ببصرها إلى النجوم المتناثرة في السماء ، وفي سكون الليل الرهيب انبعث صوت الفتاة المجنونة يسرى في الظلمة هامسة في شبه نحيب :

- أما من عزاء ! أما من صبر ! . هنا كان يقف ، وإلى هناك

كان يتطلع .. كانت الشجرة تحنو عليه والنجوم تسمع شكواه
وتبدد أحزانه .. كان يقول لى .. ما دام لدى المرء شجرة وفي
السماء نجوم فكل ما فى النفس من أحزان وأشجان يمكن أن يصبح
فى لمح البصر هشيما تذروه الرياح ، وكنت لا أجده مبالغاً فى
أقواله .. فقد كنت أشعر أن هناك شيئاً فى الحياة .. يمكن أن ينسينا
أحزاننا ويذهب بآلامنا فى لمح البصر ، وكنت أنا نفسى أجد ذلك
الشيء فى بريق عينيه ، وفى قوة إيمانه .. كانت عيناه هى نجومى ،
وكان إيمانه هو شجرتى .. فلما انطفأت نجومى وهوت شجرتى ..
أحسست بالحنين الى نجومه ، وشجرتة عليها تبدد أحزاني وتشد
أزرى ، ولكن حتى هذه قد خذلتنى .. أين العزاء .. إذا كانت
الشجرة نفسها قد أذهلها الحزن وأودى بها الجوى ، أين السلوان
والنجوم المتألمة باتت وكأنها تلمع بقطرات الدموع .

الخسارة الرابحة

أنظنين أن ربح المال هو كل شيء في الحياة ؟ إن الخسارة قد تكون في بعض الأحيان خيراً من الربح .

أول مرة في ذلك الدرب الضيق القذر بالقرب من حانة رآها أبيها الكريهة المظلمة .. وكانت وقتئذ صبية لا تتجاوز الثانية عشرة .. ولم يكن فيها ما يسترعى الانتباه أو يستلفت النظر ، فقد كانت الأزقة مكتظة بمشيلاتها من الصغيرات المشرذات بأسمالهن الرثة البالية التي تكشف من أجسادهن الضعيفة أكثر مما تستر .

ولكن الرجل ما كاد يتجاوزها حتى وجد قدميه تعودان به القهقري إلى حيث وقفت الصبية ، وأمسك برأسها يلقبها في يديه ويديرها ذات اليمين وذات اليسار ، كما يفحص بائع الدمى دمية في يده ، أو كما يفحص المرء قطعة من النقود التقطها من الثرى . وذهلت الصبية وعقد الدهش لسانها فلم تنبس ببنت شفة واستسلمت للرجل .. ولكنها أفاقت لنفسها بعد هنيهة فدفعت يد الرجل عنها بعنف وشدة وتلفظت ببعض ألفاظ السباب ثم أمسكت بحجر فرجمته به وفرت هاربة لاتلوى على شيء .

وفوجيء الرجل بما فعلته الشيطانة الصغيرة فهم بالعدو وراءها ..

ولكنه تمالك نفسه وعاد إلى رزانه ووقاره .. وسأل عنها الصبية الذين
التفوا يتصايحون من حوله فأنبئوه أنها بنت صاحب الحانة .
ووجد الرجل نفسه ينساق نحو الحانة .. وأثار دخوله همسات
القوم ، إذ لم يعتد روادها أن يروا بينهم إلا السوق والدهماء ..
واندفعت امرأة صاحب الحانة ترحب بالسيد وتعرض عليه
خدماتها .

وانتحي الرجل ناحية بعيدة في أحد أركان الحانة وجلس في
تؤدة وصمت ، وسرعان ما كف القوم عن همساتهم ، وأعادوا
رعوسهم بين الكئوس وأوراق اللعب ، وتأمل الرجل المرأة الواقفة
فإذا بها طويلة متينة البنيان بها أثر جلي من جمال عفا وباد ، كأنما
كتب على وجهها : « هنا كانت امرأة جميلة » .. واستطاع أن
يلمح في قسماتها ذلك الشبه الشديد بينها وبين الصبية الهاربة .
وطلب الرجل كأساً من الخمر وترفق بالمرأة فسألها أن تجلس
معه ، وجلسا يتجاذبان الحديث .. فأثارت المرأة عجبه إذ كانت
ذات شخصية قوية جارفة .

وأنبأها الرجل أن طفلتها هي التي دفعته إلى المجيء إلى الحان ،
فقد استوقفته فتنة كامنة في نفس الصبية ، وجمال من الخطأ يلقي
به في الأزقة وسط الإقامات .. وقص عليها ما كان من أمر الصبية ،
ورجمها إياه بالحجر .

فأجابته المرأة ضاحكة :

- هى شيطانة صغيرة ، مليئة بالشر ، مفعمة النفس بالريية والشك ، وأغلب ظنى أنها قد ورثت ذلك عن أبيها فهو دائم ارتياب فى كل مخلوق حتى فى نفسه .

ومنذ ذلك اليوم والرجل كثير التردد على الحانة ، ونشأت بينه وبين المرأة صداقة وود .. وكان لا يكاد يبصر زوجها إلا فى القليل النادر فقد كان أبداً مخموراً لا يكاد يفيق لحظة .

وكان الرجل ذا ثروة واسعة إذ كان يمتلك معظم ملاهى المدينة ومسارحها ، وكان يحس فى نفسه أنه اذا استطاع تهذيب هذه الصبية الصغيرة وتدريبها ، فسيجعل منها أعجوبة من أعاجيب الزمن .

ولكن الصبية كانت ، كما قالت أمها ، كثيرة الريية والشك لانطمئن لأحد ، فهى لم تر فى حياتها إلا هؤلاء الذين يترددون على الحانة والذين تمتلئ نفوسهم بالشرور والآثام والذين يقضون حياتهم وعيونهم مثبتة بأوراق اللعب وقد ملأهم الجشع وأعمتهم الأنانية ، هؤلاء الناس الذين لا يعطون إلا لكى يستردوا أكثر مما أعطوا .

وفى ذات يوم أقبل الرجل على الحانة ، وقد حمل فى يده صندوقاً كبيراً وطلب من الأم أن تستدعى الصبية الجميلة فأقبلت عليه عارية القدمين فى أطمارها البالية ، وأخرج الرجل ما فى

الصندوق فإذا به ثوب جميل مزركش ، وأعطاه للصبية باسماء ، وأخبر الأم أنه يود أن يرى كيف تبدو الصبية فى ذلك الثوب . وأحست الأم بالامتنان للرجل ، وطلبت من ابنتها ارتداءه ، فترددت الصبية برهة واخذ بصرها ينتقل بين الرجل والثوب فى شك وريبة ، وأخيراً جذبت الثوب وارتدته بسرعة فوق ما عليها من أسمال وأخذت تتحسسه برهة وقد تغلب عليها الزهو ، ولكن زهوالم يطل إذ سرعان ما بدت على وجهها علامات الغضب والنفور ، وأمسكت الثوب تمزقه إرباً إرباً ، ثم ارتمت باكية فى حضن أمها وأسرت لها فى صوت متشنج أنها لاتريد إحساناً من أحد .

وبدا الألم على وجه الأم وتمتمت بوضع كلمات على سبيل الاعتذار للرجل . ولكن الرجل لم يكن بنفسه غضب من عمل الصبية ، فشد على يد الأم وانصرف فى سكون .

ومن ذلك اليوم والفتاة لاتفارق موائب اللعب ، ولا تترك أبداً مكانها خلف المقامرين ، وقد علقت عيناها بأوراقهم .

كانت الصبية تشعر أنها خير من قومها ، وأن مكانها ليس فى تلك الحانة القذرة المظلمة ، ولكنها أدركت أن الفقر هو الذى يقيدھا بأغلاله ، فباتت تتلهف على المال ، حتى تستطيع أن تضع نفسها حيث يجب أن تكون .

كانت الصبية شاذة فى نوعها ، فقد ورثت عن أمها الجمال

وشدة الذكاء وحدة الذهن ، وورثت عن أبيها الشر وكره الناس والرية فيهم .

ومرت الأيام والصبية لاتبارح اللاعبين ، وأخذ اللاعبون بدورهم يستبشرون بها حتى أصبحت لازمة من لوازم اللعب ، ولم يمض عام أو بعض عام ، حتى بدأت هي نفسها تشترك فى اللعب بوضع دريهمات اختلستها من أمها .

ولم ينقطع الرجل عن التردد على الحانة طيلة تلك المدة فقد صمم على أن يصنع من الصبية ذلك النموذج الذى فى رأسه وعقد النية على أن يستدرجها حتى يرتفع بها إلى حيث يود أن يضعها . وبدأ الرجل يشترك فى اللعب مع اللاعبين ، وكانت الصبية دائمة الربح فى كل مائدة ، ولكنها لاتكاد تجلس إلى مائدة الرجل حتى تخسر كل ما ربحته .

وفى ذات مرة تركت الصبية المائدة ، وصدرها ملئ بالحنق ، وعيناها تترقرق فيهما الدموع ، فقد سلبها الرجل كل ما سلبته هى من رواد الحانة ، وتبعها الرجل فأمسك بذراعها وانتحى بها ناحية بعيدة ، وسألها عما ييكها فأجابته حانقة :

- إننى أريد المال ، أريد أن أربح دائماً !

- أنظنين أن ربح المال هو كل شيء فى الحياة ! إن الخسارة قد تكون فى بعض الأحيان خيراً من الربح .

ونظرت إليه الصبية نظرة ملؤها البغضاء ، لقد كانت تكره

الرجل ، ولكنها كانت تحس أن لديه قدرة ليست فى غيره من الناس ، ولم يأبه الرجل لنظرتها ، واستمر فى حديثه :

- على أية حال ، إذا كنت تظنين أن الحياه هى ربح المال فانى أستطيع أن أعلمك كيف تربحين دائماً ، سأجعلك من أمهر وأقوى لاعبي الورق ، وسأجعل المال يتدفق من بين أصابعك .

وبدا فى عيني الفتاة الصغيرة بريق الطمع والجشع ، لقد كانت تحس أنها فى حاجة إلى الرجل ، وتشعر أنه يستطيع أن يدفعها خارج تلك البؤرة إلى حيث الهواء والنور ...

ولن تكون بعد ذلك فى حاجة إليه ، فستعرف كيف تسير وحدها وكيف تشق طريقها دون حاجة إلى معاونة ، هى لا تريد منه غير دفعة واحدة فى بادئ الأمر ، دفعة واحدة منه ستجعلها تسير بلا توقف حتى تبلغ القمة .

وعاد الرجل يتم حديثه فى همسات نفذت إلى سمع الفتاة كأنها السهام :

- اصغى إلى .. إنى أستطيع أن أعلمك كثيراً ، وكثيراً جداً ، قد يحتاج الأمر إلى بعض الوقت ، ولكنى سأصنع منك فى النهاية معجزة تتحدث بها الأجيال القادمة ، سأنشئ لك ملهى خاصا جديراً بك ، وسأبدأ فى إنشائه عندما أبدأ فى إنشائك وسأنتهى منكما سوياً ، وسأرى الناس بعد ذلك العجب العجاب .

وبدأ الرجل فى خلق الصبية ، وأخذ يعلمها القراءة والكتابة ،

وعلمها كيف تأكل وكيف تسير ، وكيف تجلس وكيف تتحدث ، وبذلت الصبية كل ما تستطيعه من جهد ، فقد كانت تستحث اليوم الذى تستطيع أن تشعر فيه أنها فى غنى عن الرجل .

ومرت الأيام فإذا بالصبية قد أضحت فتاة بارعة الحسن فاتنة ساحرة ، واصطحبها الرجل إلى المحافل والمجتمعات ، فأثار بها العجب ، وأدار الرعوس ... وأحسست الفتاة أن الرجل قد علمها كثيراً ، بل أكثر مما كانت تتصور ، فقد كان قديراً فى كل شيء ، عالماً بكل ناحية من نواحي الحياة ، ولم تجد الفتاة به من نقص إلا فى طريقة تفكيره فى بعض الأحيان عندما كان يحاول أن يلقنها ما يسميه بالأفكار السامية ، وعندما يحاول أن يغرس فى نفسها ما يدعو به حب الناس ، والثقة فيهم .. لقد كان سخيلاً أبلاً .. وفى الواقع لم يكن يحيرها فيه إلا محاولته أن يعطيها كل شيء دون أن يطلب منها شيئاً ... ولكنها كانت تكره منه ذلك ، فقد كانت لاتقبل حسنة من أحد ، وكانت مصممة فى نفسها على أن ترد له كل ما أعطى ، بل إنها بدأت فعلاً ترد الأقساط الأولى عندما تجمع لديها بعض المال من أرباح اللعب وكان الرجل يأخذ المال منها ... وقد بدت عليه علامات السخرية والأسف .

وتم بناء الملهى الكبير ، وكان الرجل قد باع كل ما يملك فى سبيل تشيده ، فجاء آية من آيات الفن ، وبدعة من بدع العصر ..

وفى نفس الوقت كان الرجل قد أتم خلق الفتاة ، فأصبحت نموذجاً ... فما كان هناك شيء إلا وقد أتقنته إلى حد الإعجاز .
 وذهب بها الرجل إلى هناك لأول مرة ، فذهلت الفتاة ، وسارت تختال فى حجراته واعتلت المسرح وأخذت ترقص فى فرح جنونى .

ولكن فرحها لم يطل ، فقد علا وجهها حزن فجائى . وساءلت نفسها : ما قيمة كل هذا لها إن لم تكن هى مالكتها إن هذا الرجل الذى شيده لها يستطيع أن يطردها منه فى غمضة عين فتعود إلى حانة أبيها المظلمة .. كم تود لو استطاعت أن تبتاعه منه ، فتكون فيه الآمرة الناهية دون شريك أو منازع .

ولمح الرجل على وجهها آيات الوجوم فسألها ما بها ، فأجابته فى حنق :

— لا بد أن أبتاع هذا الملهى فى يوم ما .

وتبين الرجل ما فى رأس الفتاة من شكوك وتذكر يوم أعطاهما الثوب وهى صبية ونظر إليها فى أسف ثم قال :

— يخيلى لى أننى لم أستطع أن أعلمك شيئاً بعد .. ما قيمة أن أعلمك كيف تقرأين وتكتبين وتحدثين وتسيرين ، وتغنين وترقصين ، إذا لم أستطع أن أعلمك شيئاً أعمق من ذلك .. إذا لم أستطع أن أهذب ذلك الخلق الذى تعلمته من أبيك ومن رواد الحانة ، خلق الشر واللؤم والرية والشك .

وأدار الرجل ظهره للفتاة وغادر الملهى ، ووصلت إلى سمعه
ألفاظ فاهت بها الفتاة : « أحمق ، مخرف ! » .

وافتح الملهى ، فأقبل الناس عليه إقبالا منقطع النظير ... ورأى
الرجل أن تلك الصورة التى كان يرسمها للفتاة فى رأسه قد تحققت
بحذافيرها ، وأن الفتاة قد أصبحت حقاً أعجوبة الزمن .

وفى ذات يوم جلست الفتاة تتحدث مع أمها ، فقالت الأخيرة :

- إن الناس يتحدثون عن غرام الرجل بك .

حديث خرافة ! .

- خرافة .. أو غير خرافة .. ذلك هو حديثهم على أية حال .

وفكرت الفتاة برهة ، ثم برقت عيناها بالفرح ، لقد كانت هذه
هى خير فرصة لا يتبايع الملهى والانفصال عن الرجل والتخلص من
رفقته ، نعم لابد لها من أن تسير وحدها من اليوم .

والتقت بالرجل ، فاستطاع أن يقرأ فى وجهها ما تنوى قوله ،
وعصف الحزن بنفسه ، ولكنه لم يد على وجهه شىء منه ، وعجل
هو بالحديث قبل أن تبدأ هى به ، فقال فى هدوء :

- يخيّل لى أنه لم يعد بك حاجة لى ، فقد انتهى دورى معك ،

لقد صنعت لك كل ما يمكننى صنعه ، وأشعر أنه خير لى ولك
أن نفترق ، سأهبك الملهى بم فيه .. إنى أعلم مبلغ لهفتك
للحصول عليه ، حسناً ، لك أن تقرّى به عيناً ، فهو ملكك من
الآن .

ووجعت الفتاة ، وأذهلها قول الرجل ، ولم تدر أيهما الفائز ...
لقد كانت تود أن تحصل على الملهى ، وأن تفارق الرجل . ولكنه
خيل إليها أنه استطاع إذلالها ، وتذكرت حادثة الثوب الذى وهبه
لها فى صباحها فصاحت به حانقة :

- إنى لا أقبل منك هبة ، سأبتاعه منك فإن لدى بعض المال ،
وسأدفع الباقي على مرّ الأيام ، أو تستطيع أن تقامر عليه إذا شئت ،
فإن ربحت فسأخذه منك ، وإن ربحت أنت فإنى وما أملك ملكا
لك .

وأجابها الرجل بحده :

- كلا ، هذه المرة سأرغمك على أخذ الهبة . أنا أعرف أنك
تلهفين عليه .. ولن أمكنك من أخذه إلا منحة وهبة سأترك لك
كل شيء وسأغادرك إلى حيث لا رجعة .

واختفى الرجل بعد ذلك فلم يعد يبصر به أحد ، وعلم الناس
أن الفتاة قد أضحت صاحبة الملهى الكبير ، وشعرت الفتاة بالكبرياء
تملاً نفسها عندما ظهرت أمام الجماهير لأول مرة بعد ذهاب
الرجل ، فقد كانت تحس أنها قد أضحت ملك نفسها ، وعادت
إلى الحجرة لتغير ملابسها وقد تصاعد إلى آذانها هتاف الجماهير
وضجتهن ، فملأ الزهو نفسها إذ شعرت أنها تستطيع السير
وحدها .

وعندما ذهب الجماهير وساد الظلام الملهى ، أحست الفتاة

لأول مرة يوحشه شديدة ، وخيل إليها أن الرجل قد ترك خلفه فراغاً
لا يمكن لغير أن يملأه ، بقوامه الطويل ، وصوته الأجش ،
وضحكاته الرنانة .

ومرت الأيام فعادت إلى الفتاة ثقتها بنفسها وتعودت أن تدير
الملهى بمفردها دون حاجة إلى أن يكون بجانبها أحد ، ولكنها
استمرت تشعر كل مساء بالوحشة إلى الرجل وكانت تسمع بين
آونة وأخرى أنه يتردى فى مهاوى الفاقة والبؤس .. ثم بدأت تسمع
أنه قد بدأ يعود إلى مركزه مرة ثانية ، وأنه أخذ يرتفع رويداً رويداً .

وكان أكثر ما يحزنها عندما تخلد إلى نفسها ، أن الرجل ليس
فى حاجة إليها ، وأنه استطاع أن يتركها بمثل هذه السهولة وينساها
كأنها لم تكن شيئاً فى حياته ... لعنة الله على هؤلاء الناس .. كيف
كانوا يدعون أن الرجل مغرم بها ، وهو قد استطاع أن يطرحه خلفه
دون أن يلقي إليها بـتنظرة واحدة ! .

وفى ذات يوم دخل الملهى رجل طويل قد اتشح بعباءة
فضفاضة ، وأحست الفتاة بضربات قلبها تشدد ، فقد كانت
لاتخطئ هيكल الرجل قط ، ورنّت بين الجدران ضحكاته ،
واقترب منها وحيّاها فى هدوء ورقة .

وردت الفتاة ضاحكة ، وأخرج الرجل من عباءته كيساً مليئاً
بالذهب ووضع على المناضد وسألها أن تلعب معه .

وبداً الاثنان فى اللعب ؛ والتفت الجماهير حولهما رويداً رويداً ،
حتى لم يبق فى الملهى كائن إلا وقد إشرأب إليهما ببصره .
ولأول مرة فى حياتها بدأت تربح منه .. وأخذ كيس الذهب
بتناقص شيئاً فشيئاً .. وفجأة سألها الرجل :

- ما رأيك فى اللعب على كل ما نملك .. إذا ربحت فلك
هذا الكيس وهو كل ما لدى .. وإذا ربحت أنا فلى الملهى بكل
ما فيه ، حتى أنت .

وصمتت الفتاة برهة ثم أجابته هامسة :

- حسناً .. ليكون ما تريد .

- تذكرى .. أنى سأخذ كل ما فيه حتى أنت !

وبداً فى اللعب ، وكنتم الناس أنفاسهم ، وأمسك الرجل بأوراقه
فى يديه لحظة ، ثم ألقى بها إلى المنضدة ، ثم ألقت الفتاة أوراقها ،
فاذا بالرجل قد ربح ، وذهل الناس وضجوا بالصياح .

ونظر الرجل إلى وجه الفتاة .. ولم يكن أسهل عليه من قراءة
ما فى رأسها ، فأصابه الدهش ، إذ أدرك أن الفتاة قد تعمدت
الخسارة ، وبدأ عليه الحنق والخجل وسألها هامساً :

- لمَ فعلت ذلك ؟

- ألم تذكر لى ذات يوم أن الخسارة فى بعض الأحيان قد تكون
خيراً من الربح ؟

ونظر الرجل ملياً إلى عينيها وخيل إليه أنه يسبح في عالم جميل
ملئ بالنشوة وعاد يهمس إليها :

- أتقولين الحق؟! -

- كل الحق .

وعندما انصرفت الجماهير وسادت الظلمة الملهى ، أحست
الفتاة أنه لم يعد هناك ظلمة ولا وحشة .. وأحس الرجل أنه لم
يفشل في خلق الفتاة كما ود أن تكون .

★ ★ ★

شجرة العشاق

أنظر السورد وأبهاء نما
حيث روى الأرض مدفون دما

الخيال تخب بنا خباً في الطريق الجبلى .. وكانت العربة
كانت تتأرجع بنا وتهتز .. وكان المنظر حولنا يبدو فائنا
خلاباً ... إذ كانت الجبال الصخرية العالية تشرف على جانب
الطريق ، وانحنى العربة في أحد المنعطفات ... فبدا أمامنا منظر
رائع .. إذ رأينا شجرتين باسقتين تظاولان السماء وقد نبتتا في
الصخور التي تبدو من بعيد في الهاوية السحيقة ، ونمت فروعهما
وتعانقت .. ثم أخذت في الارتفاع حتى بلغت قمة الصخرة التي
في أعلى الجبل ، خيل إلّى أنها لو امتدت قليلا لمست السماء،
واختزلت السحب .

ورأى صاحبي ما بدا علّى من ذهول وإعجاب فقال :
- لاشك أن شجرة العشاق هي سبب عجبك وذهولك .
- شجرة العشاق ؟ ! ! هذا هو ما تطلقونه على هاتين
الشجرتين المتعانقتين ؟

- نحن هنا نعتبرهما شجرة واحدة وأن لها أسطورة عجيبة ...
قد تكون خرافة ، ولكن القوم هنا توارثوها عن أجدادهم ، وهم
يؤكدون أنها حقيقة لاغبار عليها .

- إذا هاتها .. تقطع بها وقتنا ، وتذهب عنا ملل الطريق .
وبدا صاحبي يقص على قصة شجرة العشاق ... وقال :

★ ★ ★

لم يكن هناك من يفتن إلى أن تلك اللعبة المحببة إلى الصبي
في طفولته ستصبح يوماً ما مهنته التي يرتزق منها في مستقبل حياته ،
وما كان ليخطر على بال أحد أن ذلك الصبي الجميل العاثر سيصير
شيخاً لقطاع الطرق وزعيماً للصوص .

ولم يكن يلذ له وهو في طفولته شيء قدر أن ينصب من نفسه
رئيساً « للحرامية » عندما يجتمع وأطفال الناحية ليلعبوا لعبة
« عسكر وحرامية » وما زال يذكر حتى الآن مقدار سروره عندما
كان ينجح في الايقاع « بالعسكر » فيوسعهم ضرباً ولكماً ويعيدهم
إلى أمهاتهم متورمة عيونهم دامية أنوفهم .

وما كان أشبه يومه بأمره وحاضره بماضيه .. لقد كان يكرر
اليوم ما فعله بالأمس .. لافرق بين العاملين ، الا أن هزل الأمس
قد أضحي بجد اليوم .. ومزحة الطفولة قد باتت مهنة الشباب ،
وحتى هذا الخلاف بين ماضيه وحاضره لا يكاد يحس به هو .. لأنه
لم يكن في أية لحظة من لحظات حياته جاداً في شيء .. فهو أبداً
هازل ماجن ... يتخذ من كل شيء ملهاة تسليه ومزحة
تضحكه ... فهو لا يرى أبداً إلا ضاحك السن ، باسم الثغر ، يهز
المرح أعطافه ، ويملاً الطرب جوانحه ، وهو لا يشعر في مهنته بأية

غضاضة أو امتهان ولا يعترف أبداً بأنها مهنة غير شريفة ، ولا يرى فيها أمراً إداً أو فعلاً نكراً ... ما دام لا يريق فيها قطرة دم وما دام لا يستبيح عرضاً ولا ينتهك حرمة ... بل إنه ليعتبر نفسه يؤدى عملاً جليلاً خيراً ، فهو لا يأخذ من الناس إلا الفائض من النقود .. التى لو تركها لهم لأغرتهم بفعل المنكر وارتكاب الشر أو لخزنوها فى باطن الأرض من فرط الحرص والبخل وانطوى عليها الزمن فما استفادوا منها ولا أفادوا .. وهو لا يأخذ لنفسه من تلك النقود إلا ما يكفيه ليتناول وجبة هنيئة وبضعة كؤوس من الخمر تبعث فى رأسه النشوة .. اما النساء فما كان به من حاجة إلى النقود لصيدهن إذ كن يقعن فى يده بلا ثمن .

كان الفتى يضطجع ذات صباح فوق إحدى الصخور المشرفة على الطريق الجبلى حيث يكثر الصيد ، وكانت أشعة الشمس قد بدأت تعلق فى الأفق وتسرى بين الأشجار فتبدد بحرارتها برودة الليل ورطوبته ، وتمطى الفتى وتثاءب ، ثم ضرب بكفه عدة ضربات على صدره ، وارتسمت على وجهه أبلغ آيات الغبطة والرضا .. وأحس إن الحياة جميلة وأن كل ما فيها مبهج سار .

كان الفتى يبصر الدنيا من خلال منظار صنع من قوس قزح . فهو يرى كل ما فيها منمقاً مزركشاً لانشوبه شائبة من كدر ، وكان سر سعادته وغبطته كائناً فى نفسه .. كامناً فى قلبه ، وكانت الفتنة تنعكس من نفسه على بقية الكائنات فلا يبدو له منها إلا الناحية البراقة الخلافة .

نظر الفتى أمامه إلى الأفق البعيد ، وأحس بذهنه يجرى به
 القهقري إلى عدة سنوات خلت ، وطافت برأسه ذكريات طفولته ..
 فصدرت منه ضحكة خافتة بعدها حوله خشية أن يكون قد رآه أحد
 بالجنون .. تذكر الفتى ذلك القناع الذى لم يكن يفارق وجهه وهو
 طفل فى الخامسة ، وتذكر مسدس « الكبسول » الذى لم يكن
 يفارق جيبه .. وتذكر كيف تسلق ذات ليلة إحدى أنابيب المياه
 ودخل حجرة جده من النافذة ، وصاح به « ارفع ... » فصرخ
 العجوز مستنجداً بمن فى البيت وكاد يغشى من فرط الخوف ،
 وكانت نتيجة ذلك « علقه » مازال أثرها باقياً إلى الآن فى جسده .
 وتذكر كيف حاول ذات مرة أن يسرق « كتاكيت » الجيران
 فقفز إلى سطح المنزل المجاور ، وعباً « الكتاكيت » فى قدر
 صغير ، وعاد بها الى داره فزلت قدمه فى عودته وكسرت ساقه
 وماتت « الكتاكيت » مخنوقة فى القدر .

وأفاق الفتى فجأة من تفكيره على ضجيج عجلات قد أقبلت
 تنهب الطريق فقفز من مكانه وأسرع الى جواده فامتطاه وانساب
 به تجاه العربية المقبلة ، واختفى الفتى فى منعطف صغير ، وما
 كادت العربية تقترب حتى ظهر أمامها فجأة وأشهر غدارته فى وجه
 السائق أمراً إياه بالوقوف ، ولم يبد على السائق العجوز أنه ارتاع
 لمنظر الفتى بل نظر إليه ببرود وقال له بهتكم وسخرية :

- افسح الطريق ... فقد سبقك زملاؤك الأشرار فالتهموا من
 الصيد شحمه ولحمه ، ولم يبق إلا جلده والعظم .

ودهش الفتى ولكنه أجاب السائق فى غضب :
 صه يا عجوز النحس ، ولا تتدخل فى شئون أسياذك الأشراف .
 ثم تقدم الفتى ومد رأسه داخل النافذة فأبصر بها ثلاث نساء
 بدا عليهن الخوف والارتياح ، وطفلاً رضيعاً قد ملأ العربة صراخا
 وعويلا ، ودهش الفتى وهز رأسه متسائلاً فأجابته إحداهن فى
 صوت مرتعد .

- لقد هاجمنا ثلاثة رجال مقنعين وسلبونا النقود والحلى ،
 وجردونا من كل ما نملك .. حتى وعاء اللبن الذى يرضع منه الطفل
 قد سلبوه .

وتراجع الفتى قليلا وبدا عليه الامتعاض وفكر برهة ثم أحنى رأسه
 للنساء وأجابهن :

- لحظة واحدة ، وسأعود إليكن بكل ما سلب منكن .
 وانطلق الفتى بجواده فى الطريق ثم انحنى فجأة فى منعطف بين
 الصخور ووقف أمام كوخ صغير ثم ترجل ونفذ إلى داخل الكوخ ،
 وهناك وجد الرجال الثلاثة قد افترشوا الأرض يتتسمون الغنائم .
 فصاح بهم وقد استشاط غضباً :

- ألم أحرم عليكم مثل هذا الصيد الهين اللين ، والغنيمة السهلة
 الباردة ... يالكم من أنذال جبناء ! !

ومد يده فجمع كل ما سلبه الأشقياء ووضعه فى حقيبة صغيرة ،
 وهم بالعودة ، ولكنه تذكر وعاء اللبن فالتفت إليهم وصاح :

- أين زجاجة اللبن ؟

وساد الصمت برهة ... ثم مد أحدهم يده في جيبه وأخرج الزجاجة ، وأغرق الفتى في الضحك وصاح بالرجل .

- أيها الغبي .. ما حاجتك بها ، أتريد أن تعود رضيعاً مرة أخرى !!

وأجابه الرجل في أسف وخيبة أمل :

- لقد أوصتني امرأتى بأن أحضر لها واحدة مثلها لطفلها الرضيع .

ومد الفتى يده في الحقيبة وأعطاه بضعة نقود وأمره أن يتنازل واحدة ، ثم أعطى بضعة نقود للرجلين الآخرين وأخذ مثلها لنفسه وقال لأصحابه .

- يكفى هذا لإطعامنا اليوم .

- ثم قفز جواده ، وبعد لحظة كان أمام نافذة العربة ينحنى باحترام ويمد يده بالحقيبة ، وزجاجة اللبن ، ودهشت النساء وبدأ على وجوههن فرح لا يوصف ولم يدرين كيف يشكرنه على جميل صنعه .

وهمّ الفتى بالعودة ولكن صفراهن نادته قائلة :

- لشد ما أخشى يا سيدى أن يعاود اللصوص الكرة مرة أخرى

فيسلبونا ما أعدت إلينا ... أفلا تكلمت بمرافقتنا حتى نستطيع أن نأمن على أنفسنا من غائلة الأشرار ؟ !

- ليسوا أشراراً كما تتصورين ، فكل ما يفعلونه هو اكتساب الرزق وقد يكون في مهاجمتهم لكم شيء من انذالة ، ولكن المسألة لم تعد خطأ في التقدير أو مخالفة للأوامر .

وسار الفتى بصحبة العربة ، وعلم في الطريق أن النساء الثلاث أختان وخادمتهما ، وأن الفتاة التي دعت لمرافقتهم هي الأخت الصغرى ، ولم يكن في نية الفتى أن يدخل معهن في دور غرام أو غزل .. إذ لم يكن فيهن ما يستثيره أو ينشيه ولم يكن بهن جمال صارخ أو فتنة أخاذة ، ولكنه .. رويداً رويداً ، وجد نفسه ينزلق في حبائل الصغرى ... فلم يكد يصل إلى نهاية الطريق حتى وجد نفسه يحس اللوعة لفرقتها ويود لو استمر في السير معها إلى ما لانهاية .

كانت الفتاة من ذلك النوع الذي يراه الإنسان فلا يأبه له ، أو على الأقل لا يذهل ولا يشده ، وكان وجهها بسيطاً لاشيء عجباً فيه ، ولكنه كان أشبه بالسهل الممتنع ... أو كان أشبه بالمغناطيس كلما ازدادنا قريباً منه ازداد جذباً لنا ، حتى إذا ما التصقنا به تعذر علينا فراقه وأصبحنا قطعة منه .

كان حديثها عذباً وصوتها نفاذاً إلى أعماق القلوب ، وعيناها بريئتين صافيتين ، وبشرتها نقيه بضة ، كأنها طفلة صغيرة ، وكان

لوجهها عذوبة لا يستطيع المرء أن يدرك منبعها ، ولكنه يحس بها
تفيض عليه ، ويشعر بجوارها كأنه سابع في بحر من الفتنة
والجمال .

وقبل أن يعود الفتى سأله الفتاة عن اسمه ، فأجابها ، ثم سأله
عن مهنته وموطنه .. فأجابها ضاحكاً :

- قاطع طريق ، وموطنى فوق أعلى صخرة تشرف على
الطريق .

. - أتهزل ؟

- بل أنا جاد ، وأى عجب فى أن أكون كذلك ؟

وابتعدت العرب والفتى يشيعها بأنظاره وهو يفكر حائراً

هذه الفتاة .. أو على الأصح هذه الطفلة الكبيرة .. قد فعلت
فى رأسه ما لم يفعله أجود أنواع الخمر مضافاً إليها أجود أنواع
النساء ، ولكن أى فائدة فى التفكير فيها ، وهى أبعد الناس عنه وعن
التفكير فيه ... أى صلة هناك بين فتاة طاهرة بريئة ، وبين قاطع
طريق .. إلا إذا كان هناك صلة بين إبليس والجنة .

وهز رأسه فى أسف وحدث نفسه .

- لا فائدة .. إنها لن تنزل إليه ، ولا هو بصاعد إليها . هى لا
ترضيها حياته الشاقة الصاخبة ، وهو لا ترضيه إلا هذه الحياة .. فعبتاً
بأمل .

ووكز جواده عائداً أدراجه ، وعلا صوته غناؤه يتردد في الطريق
المعقر ، وامحت الفتاة من ذاكرته .

ومرّت الأيام بالفتى وهو هادئ في مستقره .. مرح طروب ناعم
البال لا يكدر حياته كدر ... كما كان تماماً في طفولته .. لا يخيفه
رجال الشرطة .. إلا بقدر ما كان يخيفه « العسكر » في لعبة
« عسكر وحرامية » ... فهو أبداً دائم الإيقاع بهم والسخرية منهم ،
وهو يشعر نحوهم بنوع من الود والصدقة ، فهم دائماً مبعث
تسلية ، وهو يحس أن حياته كان يمكن أن تكون أقل متعة وأكثر
كآبة لو كفوا عن مطاردته وأحجموا عن تعقه .

وفي ذات يوم كان صاحبنا يجلس في مضجعه فوق الصخرة
قبيل الغسق ، فإذا به يسمع صهيل خيل وضجيج عربات آتية ..
فقفز من مكانه وعدا بجواده ليستقبل الصيد .. فقد نم عليه صوته
أنه صيد وافر مكتنز ، وأصدر الفتى صغيراً طويلاً فظهر من بين
الصخور عدة رجال كأنهم كانوا على أهبة .

وبدت في الطريق عربية مطهمة ، ولم يكن هناك شك أنها كانت
تحمل أحد الأثرياء فقد ظهرت عليها الفخامة والروعة .

واعترض الرجال طريق العربة شاهرين أسلحتهم ، وتقدم الفتى
إلى النافذة يطلب من ركبائها تسليم ما معهم ولكنه لم يكذب
يصبر من بداخلها حتى تراجع مأخوذاً .

لقد وجد فتاته الساحرة وقد علت شفيتها بسمة تذيب أحزان الدنيا .

كانت الفتاة مازالت تذكر الفتى .. يل إنها ما نسيته قط ، رغم أنها كانت تدرك تماماً أن من العبث التعلق به ، فقد كان فى نظرها لا يعدو أن يكون بطلا من أبطال القصص وخرافة من خرافات الأساطير .

وخطبت الفتاة لكهل ثرى .. فلم تتمنع ، فقد كان هو وغيره سواء ..

وكان الزوجان فى طريقهما إلى قصر الرجل ليقضيا شهر العسل ، وألحت الفتاة على الرجل أن يسلكا الطريق الجبلى رغم خوف الرجل من قطاع الطرق ... فقد كانت الفتاة تتمنى أن ترى قاطع الطريق مرة ثانية .

ومرت لحظة صمت طويلة .. كان الفتى ينظر خلالها إلى الفتاة مشدوهاً ، والزوج الحائر ينتفض من الخوف ، وقد بدأ يخرج ما لديه من أموال حتى يتقى شر اللصوص ، ولكنه ذهل عندما رأى الفتى يفتح باب العربة وينحنى باحترام ، ثم تقدم من الفتاة وأمسك بيدها يقبلها فى خشوع ثم جذبها فى رفق وأنزلها من العربة .

وجحظت عينا الكهل ، وفقر من العجب فاه ، ولكن الفتى أشار إشارة تهدئه وقال يطمئنه :

- لاتخف أيها السيد ... فلن يلحق بك أذى ، إننى لا أريد منك شيئا سوى أن تسمح لى بالرقص مع السيدة .

وأمسك الفتى بيد الفتاة وبدأ فى الرقص والغناء ، وبعد برهة أخرج أحد رجاله صفارة من جيبه وأنشد لحناً أطرب القوم وهز أعطافهم ، فتماسكوا وتخاصروا وانهمكوا فى الرقص .

ووقف الكهل غير مصدق أن ما أمامه حقيقة واقعة ، وأقسم فى نفسه أن القوم ذوو جنة ، ولكنه مع ذلك لم يسعه إلا أن يشهد المنظر حتى نهايته .

وطال الرقص بالقوم واستخفهم الطرب . حتى لم يعد العجوز يتصور أنه فى جبل مقفر وبين عصابة من قطاع الطرق ، بل خيل أنه فى حفل زفاف وليلة عرس وأن هذا الجمع الحاشد لى يقصد قط أن يسلبه نقوده .. بل قصدوا تسليته وإدخال السرور على نفسه ، ولم يعد ينقص المنظر شيء سوى أن تصف الموائد وتدار الكؤوس ، وتعلق الزينات فوق الصخور ويفرش الطريق بالطنافس .

وأخير أبعد كل الفتى والفتاة ... قبل يدها فى رفق وقادها نحو العربة .. ثم التفت إلى الرجل المذهول وانحنى أمامه فى احترام ثم قال له :

- أشكرك يا سيدى أبجزل الشكر .

وتحركت العربة ووقف الفتى يشيئها ببصره . ورأى رأس الفتاة

الجميلة يطل من النافذة ثم تلوح له بيدها وتلثت العربية تتضاءل حتى طواها الأفق .

وشعر الفتى بعد ذلك بألم الحرمان والوحدة وأحس أن الدنيا من حوله قد أصابها حلكة دامية .

لقد أصابه يأس شديد ، إذ بات يشعر أن الفتاة شيء لازم له لزوم الماء والغذاء والهواء .

كانت المرة الأولى التي شعر فيها بالحب ، وبالحرمان .
كان دائماً بلا أمل ... فلما لاح له الأمل ، لاح مفقوداً .
وعجب القوم بعد ذلك للفتى كيف تبدل مرحه وجوماً وإطراقاً .
وكيف انطوى على نفسه فأصابه الذبول . والشروود ، وأدمن على الخمر فلم يكن ليثوب إلى رشده لحظة واحدة ، وبدأ ذكاؤه يخبو وقوته تضمحل ، ولم يكن يفارق الحان إلا وقد سقط من فرط الشراب .. فيحمله رجاله ويعودون به إلى مضجعه بجوار الصخرة كأنه خرقة بالية .

ووشى به واش إلى رجال الشرطة الذين كانوا يتلهفون على القبض عليه بعد أن أعياهم وأقض مضجعهم ، وذات يوم أفاق الفتى من نومه فإذا بثلة من الجند تحيط به ، وقد شهروا سيوفهم وغداراتهم ، ولكنه نظر إليهم فى سكون وهدوء ، ولم يبد أية مقاومة ، وانقاد إليهم فى يأس واستسلام ، وذلة ومسكنة ، وتقدم أمامهم بجوار الصخرة فى أعلى الجبل .

لقد كان يحس أنه لأشئ هناك يستحق منه الجهد .
 وعلى حين غرة وجد الجند أسيرهم قد ثبت فى مكانه وأرهف
 أذنيه ... ثم سمعوا صوت عربة قادمة فى الطريق وأبصروا العربة
 تتمهل قليلا ثم تقف ولمحوا من مكانهم فى قمة الجبل شبح امرأة
 تهبط عنها وتحديق يبصرها فى الصخرة العالية .
 كانت الفتاة الساحرة قد عادت إلى الطريق مرة أخرى فقد أصيب
 زوجها بمرض لم يسهله إلا قليلا ، وكان قاطع الطريق قد ملك عليها
 مشاعرها .. فوجدت نفسها تنطلق من حيث لاتدرى إلى الطريق
 الجبلى .. فقد كانت مجنونة به متلهفة على رؤيته ، وأبصر بها
 الفتى .. فذهب عنه جموده وشروده ، وشعر بالحرارة تسرى فى
 دمايته وبالحياة تدب فى جسده مره أخرى .
 وقفز الفتى بينهم قفزة هائلة وأخذ يعدو على قمة الجبل متجهاً
 إلى الفتاة ، وأفاق الشرطة من ذهولهم . فرفع أحدهم غدارته
 وصوبها إلى الفتى ، فأصاب الهدف .
 وترنح الفتى وتأرجحت جثته .. ثم سقطت فى الهاوية التى فى
 الجانب الآخر من الجبل .
 وصرخت الفتاة صرخة مدوية ، وانطلقت لاهثة إلى المكان
 الذى سقط فيه الفتى وحملت فى الهاوية بعينين جاحظتين .. ثم
 ألقت بنفسها فى الهاوية ولحقت بصاحبها .
 ومنذ ذلك الحين شاهد الناس شجرتين تثبتان فى الصخور التى

فى أسفل الهاوية . ونمت الشجرتان مع الزمن ، وتعانقت أغصانهما
وعلت فروعهما حتى وصلت أطرافهما إلى تلك الصخرة العالية ،
وسموها شجرة العشاق .

ويعتقد القوم هنا أن الشجرتين قد أنبتتهما دماء العاشقين إذ لم
يحدث أن نمت شجرتان غيرهما بين الصخور فى تلك المنطقة
وصمت صاحبى ، وتلفت خلفى فإذا بأطراف الشجرتين تعبت
بهما ريح خفيفة فتهاز أغصانهما فى زرقاء السماء ، وخيل إلى أنى
أكاد أبصر منهما روحى العاشقين تتعانقان ، ولكنى عدت إلى نفسى
والتفت إلى صاحبى قائلاً :

- ما أوسع خيال الإنسان وما أقدره على ابتكار أحداث الهوى
وأقاصيص الغرام .. كل شئ عنده يرى إلى العشق مرجعه ، ومن
الحب منبته وإليه مآله ومنتهاه .

وادی القلوب الخائفة

أجل ! . ما من زواج تم في وادی القلوب
المحطمة إلا وأعقبته كارثة تورث النفوس
حسرة ولوعة .

وإياه على الشاطئ ربوة عالية كستها الخضرة ، وظللتها
جمعتى شجرة هرمة كأنها والزمن صنوان ، وكان الوقت قبيل
الأصيل وقد أشرفنا من مجلسنا على مغرب الشمس وقد أخذت
تهبط في الأفق حتى غمرت مياه النهر فبدت كأنها جمرة متأججة
توشك أن تحبوا .. وبدت من خلفتنا الكروم الممتدة في الوادی
الخصب تتخللها أشجار البرتقال والليمون وقد حملت إلينا النسمات
شذى عطر يفوح أزهارها البيضاء .

ونظرت إلى الرجل وقد اتكأ بظهره على مقعده وأخذ يهز ساقيه
هزات منتظمة ، وأطلق بصره في الأفق البعيد ، وشاعت في وجهه
علامات الغبطة والزهو وقال مستضحكا :

قلت لك إن هذا كان اسمه حتى صادفتها .. فمسه ومسني منها
سحر بدلنا وخلقنا جديداً .. لقد أصبح اسمه بعد ذلك « وادی
القلوب السعيدة » ... وأصبحت أنا رجلاً سعيداً .

منذ بضع سنين كان هذا الوادی خراباً بلقعاً .. وكنت أعمل
بالتدريس في إحدى مدارس المدينة ، وكانت هي طالبة في هذه

المدرسة . ورغم أن نوع جمالها قد جعلنى أميزها عن غيرها من الفتيات ، إلا أننى لم ألق إليها فى بادئ الأمر كثير اهتمام ... أولاً ، لأن الظروف المحيطة بى وقتذاك كانت تجعلنى شديد الزهد فى أن أخوض معارك غرام .. شديد الرغبة فى أن أبقى قلبى مزالق الهوى ومهاوى الحب ... وثانياً ، لأننى - حتى لو فشلت فى وقاية نفسى معارك الغرام - فلا أقل من أن أنأى بها عن ذلك الجو المدرسى فلا أجعلها تشتبك مع طالبة هى فى منزلة ابنتى أو هذا هو المفروض . وهكذا لم أحاول قط أن أظهر لها اهتماماً خاصاً .. وإن كنت لم أستطع أن أمنع نفسى من الضيق لغيبتها إذا غابت .. أو السرور بوجودها إذا ما حضرت فقد كانت تلك إحساسات خفية فى داخل نفسى لا أستطيع الوصول إليها أو التحكم فيها .. على أية حال لقد اعتبرتها مجرد شعور « استلطاف » لا يستدعى من كثير انزعاج أو تفكير .

ولكن المسألة بدأت تتطور .. وبدأ ينشأ بيننا ذلك الود الصامت ... والصدقة التى نحس بها فى الصدور ، ولا تفصح عنها إلا نظرة أو بسمه تسرى بين الطرفين مسرى الكهرباء .

وفى ذات يوم كنت أشرح أحد دروس الجغرافيا . فذكرت فيما ذكرت هذه المنطقة وقلت لهن على سبيل التسلية إننى أعرف أن هذا الوادئ يطلقون عليه اسم « وادئ القلوب المحطمة » وأثار الاسم ضحكهن ولم يخل الأمر من أن يعلقن عليه ببعض النكات والتعليقات .

وفى نفس اليوم التقيت بالفتاة خارج المدرسة وكانت المرة الأولى التى ألتقى بها على حدة فتصافحنا .. وأحسست بمتعة شديدة عندما شعرت بها تسير بجوارى جنباً إلى جنب وكان حديثنا لا يمكن أن يخرج عن المحيط الدراسى ... حتى سمعتها تسألنى ضاحكة ... هل رأيت وادى القلوب المحطمة ؟

فهزت رأسى بالإيجاب . فعادت تسأل :

- هل تعرف لم أطلقوا عليه هذا الاسم ؟ .

- إن لذلك قصة . - قصة حب ؟

وترددت برهة قبل أن أجيب . لو قلنا قصة بغض فقد يكون التعبير أصح .. هل تودين سماعها ؟

- ذلك يتوقف على خاتمته .. إن كانت محزنة فإنى زاهدة فى سماعها .. لأننى أحس بشئ من السعادة .. لا أود أن أفقده .
- إذا كان الأمر كذلك فلا داعى لقصتها .

وكان فى صوئى رنة حزن جعلتها تعود فتطالبنى بقصتها وتصر على ذلك وكنا قد وصلنا إلى إحدى الحدائق العامة فدلفنا إليها وانتحينا ركناً هادئاً وبدأت أقص عليها القصة قائلاً :

- إنها لعنة قديمة أطلقها عجوز هندية فأصاب المكان وظلت به حتى يومنا هذا ، ولقد قالوا إن سبب اللعنة هو أن العجوز كانت لها ابنة تعمل خادمة عند سيد الوادى ، وكانت الفتاة أشبه بزهرة متفتحة أو عصفور مترنم ، يشع السحر من عينيها ويفيض الشهد

من فيها ... لا ترى إلا مرحلة ضاحكة جمة النشاط مجدة دؤوباً
لا تكاد تشرق الشمس إلا وهي تسحب البقرة لتحلبها .. وتظل طيلة
يومها في عمل مستمر لا تهدأ ولا تستقر .. فكانت محل رضاء
السيد الكهل وامرأته .. وموضع عطفهما ... حتى كان ذات يوم
ذهب الرضاء وتطايير العطف ، وحل محلهما غضب شديد على
الفتاة .

لقد أحب ابنهما الفتاة ... ابنهما الذى سيصبح سيد الوادى ،
والذى سيرث تلك الأملاك الواسعة ، قد أحب الخادمة ! ... ولو
قد حدث هذا الأمر فى وقتنا هذا لما كان بالشئ المستغرب ،
ولما نظرنا إليه نظرنا إلى شئ يستحيل وقوعه ، أو إلى جريمة
تستحق العقاب .. لأن الحب أمر ليس للإنسان فيه قدرة الاختيار
بل هو مقود مساق .. وما كان الفتى والأمر كذلك ليلا على وقوعه
فى حب الفتاة ولكن السيد والسيدة هالهما الأمر ، وثارت ثائرتهم
عندما أنبأهما بعزمه على الزواج من الفتاة ... وصمما على أن
يطرداها شر طردة وأن يبعداها عن الوادى ويوقعا بها أقصى العقاب
فقد اعتبرها مسئولة عن غواية ابنهما وإيقاعه فى شراكها .

وهجمت السيدة العجوز على الفتاة فى حجرتها فكالت لها
الشتائم والسباب وجردتها من ثيابها . ثم أقبل السيد فانهاهال عليها
بسوطه حتى ألهب ظهرها .. وانطلقت الفتاة تعدو من الدار فرعة
مرتعدة حتى وصلت الى أمها فسقطت أمامها مغشياً عليها .

وراع الأم ما حل بابنتها ، فرفعت كفها إلى السماء ودعت الله
أن يحطم قلوب أهل الوادى وذريتهم من بعدهم عقب كل زيجة
تتم ، وأن يفجع كل زوج لى زوجته وكل زوجة فى زوجها وكل
أب وأم فى بنيهما .

وسادت فترة سكون قطعتها الفتاة متسائلة :

- وهل استجيب الدعاء وحلت اللعنة ؟

- أجل .. فأصابت أول ما أصابت صاحبة اللعنة نفسها .. وكان
أول قلب تحطم هو قلبها هى .

- ماذا تعنى .. وكيف ؟

- لقد فر الفتى ابن السيد .. وتزوج الفتاة رغم أبيه وأمه .. ولم
تمض بضعة أسابيع .. حتى حلت اللعنة وماتت الفتاة بين ذراعى
زوجها بعد أن أصيبت بـلدغة أفعى .

وهل استمرت اللعنة ؟

- أجل .. لقد مرت السنون .. وفى أول زواج حدث فى العائلة
بعد ذلك أنجب الزوجان طفلا قرت به عيناها ولكنها لم يكذب
الثالثة حتى سقط من النافذة ودق عنقه وجنت أمه الشكلى . وهكذا
استمرت اللعنة تحطم قلوب القوم وتفجع نفوسهم جيلا بعد جيل ..
فمرة تفر الزوجة مع عشيق لها .. ومرة يفر الزوج مع خادمتها ،
وثالث يلعب الموت دوره فيأخذهما ليترك الآخر كليم القلب
مجروح الفؤاد .. أجل ما من زواج تم فى وادى القلوب المحطمة

إلا وأعقبته كارثة تورث النفوس حسرة ولوعة .. ترى هل أحزنتك
القصة ؟

- لا أظن .. ولكن قل لى .. هل ينسب الناس كل تلك
الكوارث التى حدثت فى الوادى إلى لعنة المعجوز ؟ .

- طبعاً .. ولقد انتهى الأمر بصاحبه الأخير إلى هجره والفرار
منه بعد أن تحطم فيه قلبه .. أجل .. لقد تركه لخادمه وأقسم ألا
يعود إليه .. وأصبح الآن خادمه سيده .

- ولكن ماهى قصة الكارثة الأخيرة التى حدثت بصاحب الوادى
إلى هجره ؟

- كغيرها من الكوارث لا تخلف قليلاً ولا كثيراً .. لقد أحب
الرجل - أو هكذا خيل إليه - فتاه شقراء فاتنة ، وكان يرى فيها
ملاكاً طاهراً حتى تزوجها .

- يخيّل إليّ أنك تعرف الرجل جيداً .

- أجل لقد كنت أقرب الناس إليه .. أقرب مما تتصورين ..
فأينما ذهب ذهبت ، وأينما ذهبت ذهب .. هل فهمت ؟ !
ونظرت إليّ نظرة طويلة ثم هزت رأسها ببطء ، وقالت فى صوت
خفيض .. أظن أنّى فهمت .. قل ماذا حدث لصاحبك بعد أن
تزوجها ؟

- حدث أمر فى غاية البساطة .. لقد كان لصاحبى هذا صديق
عزيز لديه .. صديق طفولة وزميل صبا .. فدعاه فى ليلة عرسه ..

وفى الصباح عندما جلس لتناول الفطور .. لم يجد صاحبه ولم يجد زوجته .. لقد فر الاثنان ؟ .

- غير معقول ! .

- معقول أو غير معقول .. إن هذا هو ما حدث .. إنها لعنة العجوز قد حطمت قلب صاحبي ..

- ولكن لا أظنك يا سيدى تعتقد أنت الآخر أن لعنة العجوز لها دخل فى الأمر .. زوجة طائشة لاخلق لها ولا وفاء .. وصديق أنانى استبدل بالوفاء خديعة وبالأمانة خيانة .. وزوج سليم النية ظن بهما خيراً فلم يعرف خبيثة نفسيهما وحطمت قلبه الواقعة .. مداخل لعنة العجوز فيما حدث ؟

وأحسست بشيء من الخجل وأصابنى الارتباك وشعرت أنها ترمقنى بنظراتها فلم أنبس ببست شفة وأردفت هى تقول :

- قل لصاحبك إنه جبان لأنه فر من موطنه خوفاً من لعنة العجوز .. وقل له أن يتعلم كيف يختار امرأته وكيف يعطى قلبه لمن تستطيع صيافته .. لا لمن يطربها تحطيمه ! .

ونظرت إلى عينيها لأسير غورها ولأنفذ إلى رأسها ، وقلت كأنما أحدث نفسى .. إن صاحبي لم يعد فى حاجة إلى من يقول له ذلك .. فلقد اختار فعلاً .. ويخيل لى أنه لم يخطئ هذه المرة !

- إذا فماذا يبقه بعيداً عن موطنه ؟

- إنه يخشى ألا ترضى أن تعود معه .

- هل سألتها ؟ - لا .

- ولم ؟ - إنه يخشى .

- يخشى ! .. ألم أقل لك إنه جبان .. ماذا يخشى من سؤالها .. هبها رفضت فلتذهب إلى حيث ألفت .. لأنها تكون لانتسحق حبه .. ويكون قد أخطأ في الاختيار مرة أخرى .

والتقت عينانا ، فلم أستطع المقاومة ولمحت فيهما انتظاراً ولهفة ، لقد اتهمت صاحبي بالجبن ، وهى لاشك قد عرفت أن صاحبي هذا هو نفسى ، وهى تعيب علىّ أننى لم أسألتها .

واقتربت منها ، وكان المكان قد خلا إلا منى ومنها ، فأمسكت بوجهها الصغير بين كفى ، لقد طلبت منى أن أسألتها فمددت شفتى وهمست فى شفتيها بالسؤال ، وأجابت سؤالى بنفس الطريقة همسة ولمسة من شفتيها .

وأحسست بيدها تضغط على يدى وسمعتها تقول :

- سأتحدى لعنة العجوز ، إن المسألة لا تحتاج إلا إلى شيئين حب ووفاء ، وسأستطيع بهما أن أقهر اللعنة ، وأن أجعل من وادى القلوب المحطمة ، وادياً للقلوب السعيدة .

وعدنا سوياً إلى الوادى ، فأصبح يا سيدى كما تراه ، لا يكف

طيره عن الترنيم ، ولا زهوره عن الابتسام ، لقد مرت علينا ثلاث سنوات أنجبنا فيها طفلاً وطفلة ، وإنى لأحس ، بالقناعة والرضا ، وأحمد الله على نعمته .

ولم يكن يتم قوله حتى رأينا دخاناً يتصاعد فى الهواء من ناحية الدار ، ورأيت وجه الرجل يكفر وبدأ فى عينيهِ ذعر شديد فأصابتنى شعيرة ، وقفز من مكانه صائحاً : « حريق » ! ! وانطلق يعدو إلى الدار كسهم مارق ، وانطلقت أعدو خلفه بكل قواى وتذكرت فى تلك اللحظة لعنة المعجوز ولم أشك فى أنها خطرت برأسه ، وأنه قد خشى أن يكون حريق قد شب فى الدار فأصاب زوجته أو ولديه بسوء ، وانطلق كالمجنون لكى يبعد عنهم ذلك السوء .

وعندما وصلت إلى حديقة الدار كان الرجل قد اندفع إلى الداخل وأخفاه الدخان المتكاثف ، وبعد لحظة رأيت امرأته وولديه يقبلان من خارج الدار وقد روعهم الحريق وأحسست بفرحة شديدة عندما تبينت أنهم بخير ، وأنهم لم يكونوا داخل الدار ، وأخذت أصيح بالرجل لكى أنبئه بسلامتهم حتى يعود إلينا ، ولكنه لم يسمع ، لقد كان يعدو وسط النيران كالمجنون وهو ينادى امرأته وولديه .

وأخيراً خرج الرجل من الدار ولكنه لم يكن إلا جسداً أكلته النيران وأحرقه اللهب ، ومات الرجل ، ولم يكن موته هو الذى أوجع قلبي فما حزنت لشخص مات ، إنى أحسد الموتى على موتهم ، لأننى أرى فى موتهم نجاة لهم من حياة كلها تفاهات

وسخافات ، ولكن الذى روعى حقاً ، هو تلك المرأة وولداها ،
وقد بدا ثلاثتهم كأنهم تماثيل للوعة والأسى . أجل هذه القلوب
الثلاثة البريئة المحطمة ، هى التى حطمتنى ، وأبكتنى .. هذه المرأة
الشجاعة التى ظنت أنها تستطيع أن تقهر القدر بالحب والوفاء ،
وقد جزاها القدر شر الجزاء !

★ ★ ★

سخرية

ولكن شيئاً جديداً قد طرأ عليها .. شيئاً لم
تستطع أن تحدّد بالضبط إلى أين ينتهي بها .
وإن كانت موقفة في نفسها أنه لن يؤدي إلى
خير ، فقد كان به نوع من المتعة وإن كانت
متعة بالسة .

كل ما في الكون مشرقاً متلألئاً .. إلا قلبها فقد تكدست
بـكان حوله الظلمات ، وضربت عليه حجاباً كثيفاً شديد
السواد شديد الحلكة .. لا يجد الضوء إليه سبيلاً .. حتى باتت من
فرط ما كان يملؤ نفسها من يأس وحزن .. كأنها بمعزل عما
حولها ، فهي لاتكاد تبصر من خلال ذلك السياج المظلم الذي لف
نفسها إلا كل عادية مضيئة .

أجل لقد أمضها اليأس فجلست على حافة السفينة في صمت
وسكون ، لاتكاد تبصر تلك الشمس الوضاعة وقد انعكست أشعتها
على صفحة الماء الأزرق الرجراج الذي لايعكر صفوه زيد ولا تقلو
سكونه رياح هوج .

وكيف تشعر بهذا أو بذاك وفي جوفها ربح دائمة العصف عاتية
قاسية ، وفي قلبها هزيم من الوعد ثائر حائق ، وفي نفسها سحائب
معتمة لايلمع فيها البرق إلا كما تلمع لمحات الأمل الكاذب في
حلقات الخطوب ...

تري ماذا أصاب الفتاة الصغيرة الرقيقة ، وما أوجع نفسها ؟ لقد
جلست شاردةً الذهن تائهة الفكر ، وقد طافت برأسها تلك الأيام
الموحشة المريرة التي مرّت بها .. ثم قفز بها الذهن قفزة طويلة
إلى بقعة بيضاء مشرقة ما زالت تلوح لها من ذلك الماضي
الأسود .. رغم بعدها وقدم عهدها ، وأبصرت فيها وجهاً لم تكن
تستطيع أن تميز فيه ملامحه تماماً ولكنها كانت تميز فيه عطفاً
فياضاً ، وحناناً دافئاً ، وتسمع منه كلمات التدليل التي لم تسمعها
قط من سواه .. لقد كان وجه أمها .. الباسم الرقيق ، وقد فقدتها
وهي ما زالت طفلة صغيرة ... فقدت معها ذلك الصدر الدافئ
الذي كان يحتويها ، وفقدت تلك العينين الصافيتين اللتين كانتا
تفيضان بالحنان والرفقة .

لقد تزوج أبوها بعد ذلك من امرأة .. شتان ما بينها وبين
أمها ... كانت أمها ينبوع حنان ، وكانت المرأة بركان بغضاء ..
كانت الأولى حرارة تدفئ ، وكانت الثانية لهيباً يحرق ..

لقد ناصبتها العداء ، وهي طفلة غريزة لا تدرى من الحياة شيئاً ،
وبدأتها بالكراهية بلا سبب ولا موجب ، وكم حاولت أن تتلمس
فيها ليناً أو رقة . لتستعيض بها عن أمها الراحلة ، ولكن المرأة كانت
شديدة الحقد خبيثة الطوية ، فكانت تتلمس لها الأخطاء لتوقع بها
العقاب ، وتنكل بها تنكيلا .

وكانت المرأة تكره أن ترى من أبيها عطفاً عليها ورأفة بها ..

فكانت توغر صدره ضدها . وكانت تستثيره عليها بالكاذيب والأباطيل .. حتى انتهى الأمر بأبيها إلى تجنبها وإهمالها كي يسترضى المرأة .

ومرّت الأيام فإذا بالفتاة تجد نفسها في الدار كأنها خادمة ، وإذا بالمرأة تعلم بناتها كيف يكرهنها ويحتقرنها ، وكان يوجع نفس الفتاة أن ترى ذلك الفارق بينها وبين أخواتها في كل شيء دون أن تحس أنها قد ارتكبت ذنباً أو فعلت ما تستحق عليه أن ينبذوها نبذ النواة .

ولم يكن كل ذلك ليوجعها قدر ما أوجعها ذلك الشيء الذي أصابها دون أن تدري له سبباً ولا علة .. لقد بلغت الفتاة مبلغ الشباب دون أن يبرز لها ثديان ! .. ولم تكن لتأبه كثيراً لذلك الأمر ، لولا تلك السخرية التي كانت تلقاها من امرأة أبيها ومن أخواتها الصغار اللاتي نضجت صدورهن واكتملت أنوثتهن .

ولطالما أسرفت عليها المرأة بجهلها وحمقها ، وتفنت في أساليب السخرية منها ، فوصفتها بأنها كانت رجلاً انعكس خلقه واختلط .. فاققلب مخلوقاً عجيماً بين الرجال والنساء ، وكانت كثيراً ما تنبئها أن لا أمل لها في زواج ، وأنه يجب عليها أن توطن نفسها على العيش وحيدة .. فإن الرجال لا يتزوجون رجلاً .

ولم يكن هناك ما يحطم نفس الفتاة ويمزق قلبها قدر تلك الكلمات الساخرة اللاذعة التي كانت تقع عليها وقع السياط ،

وكانت تظهر لها الحياة موحشة كئيبة ، إذ تحس فيما بينها وبين نفسها أن كلام المرأة الساخرة قد يكون به كثير من صواب ، فما كان لها أن تتطلع إلى ما تهفو إليه نفس كل فتاة في باكورة الحياة ومقتبل العمر .. فقد بخلت عليها الطبيعة بما تعودت أن تهبه غيرها من الإناث ، وحرمتها الشيء الذي تعتبره حقاً لها ، فهاهي ذى تبدو كأنها شيء شاذ بين الآدميين .. يغمرها الشعور بالنقص ، فانطوت على نفسها وطوت على الأحران صدرها ... إذ لم تكن تلقى من تفضي إليه ببعض ما تجد ، بل لم تكن تجسر على أن تطلب علاجاً لعلتها .. لو أمكن أن يكون لها علاج .

وكانت الفتاة كثيراً ما تخلو إلى نفسها فتذكر كيف كانت امرأة أيها تحتم عليها وهي صبية في طور المراهقة ، أن تشد ثوبها إلى صدرها بعنف ، وكيف كانت تصر على أن تلبس الضيق من الثياب حتى يضغط بشدة على صدرها زاعمة أن ذلك يقيها البرد ، ومع ذلك فلم تكن تفعل مع بناتها ذلك الأمر ! ..

ترى أكان ذلك هو سبب ما بصدرها من ضмор ؟ أترى المرأة اللعينة كانت تعلم سلفاً ما سوف يؤدي إليه عملها الشائن في ذلك الوقت ؟

لقد كانت الفتاة تغلق على ذلك الجحيم صدرها ، وكانت تنظر إلى الحياة نظرة استسلام ويأس ... فما كانت ترجو منها خيراً ، وما كانت تخشى منها شراً .

وعندما رحلت بهم السفينة من ميناء كورونا الأسباني - وكان ذلك في أوائل القرن الخامس عشر - كانت وجوههم تفيض بالبشر ، فقد كانوا يتلهفون على تلك الرحلة فى عرض البحر ، وكان صحو الجو وصفو السماء بنشان برحلة طيبة هادئة ، ولكن الفتاة لم يكن يهمها مما حولها شئ . وكان البر والبحر لديها سواء .. فما كانت الرياض الزهو أو الحداثق النظر ، وما كانت زرقة البحر أو صحوة السماء لتزبل تلك العلة الكامنة فى قلبها . وسارت السفينة تمخر عباب اليم ، ومَرَّت بضعة أيام والقوم منغمسون فى لهوهم ومرحهم والفتاة مستغرقة فى وجومها وإطرافها ، حتى فوجئوا ذات يوم بسماع دوى أصم آذانهم وهز جوانب السفينة .. فساد الذعر قلوبهم وملأ الرعب نفوسهم ، ولاسيما عندما علموا أن إحدى سفن القرصان قد بدأت فى مطاردتهم .

وحاول الربان أن ينجو بسفينة فأطلق لها العنان وانطلق يسابق الريح محاولا الفرار من مهاجمة القرصان . إذ لم يكن لديه من الأسلحة ما يستطيع به المقاومة ، ولكن السفينة المطاردة كانت أخف منه حركة فسرعان ما أدركته وأخذت فى تضيق الخناق عليه ، وانطلقت منها بضع قذائف للتهديد فمرقت من فوق سطح السفينة دون أن تصيبها ، وأخيراً لم يجد الربان بداً من التسليم .

وصعد القرصان بأسلحتهم إلى سطح السفينة ، ووقف ركابها

يرتجفون من فرط الهلع ، وقد أخذت النساء فى العويل والبكاء ...
إلا واحدة .. لم يبد عليها أن الأمر يعينها فى قليل ولا كثير ، فقد
وقفت الفتاة كعادتها على حافة السفينة مطرقة واجمة ، وهى تنظر
إلى أولئك الرجال المسلحين الذين أخذوا يتابعون على ظهر
السفينة ، وبدعوا عملية السلب والنهب فجمعوا كل ما على السفينة
من أموال وجواهر وحلى ، وقد وقف قائدهم مكشراً عن أنيابه
عابس الوجه مقطب الجبين .

ولم يكتف الرجال بذلك الكوم من الحلى التى جمعوها فقد
أغرتهم تلك الثياب الثمينة الموشاة بالذهب التى ارتدتها أخوات
الفتاة وأمنهن فانقضوا عليهن وأخذوا فى تجريدن منها وإضافتها إلى
كوم الغنائم ، ثم حملوا كل ما استطاعوا اقتناصه وساقوا النساء
أمامهم عرايا وقد ذهب الخوف بلبهن .

وعندما هم قائد القرصان بمغادرة السفينة لمح الفتاة فى وقفها
فأشار إلى أحد رجاله أن يسوقها مع بقية النساء ولم تمض لحظات
حتى كان القرصان قد أخذوا فى الابتعاد بغنيمتهم الثمينة .

ورسا القرصان بسفينتهم على الشاطئ الأفريقى ... حيث بدعوا
يعرضون النساء للبيع فى إحدى أسواق الرقيق ، ولم تمض لحظات
حتى كانوا قد انتهوا من بيعهن جميعاً إلا اثنتين ... كانت إحدهما
الفتاة ، وكانت الثانية .. امرأة أبيها ...

وعاد القرصان بالفتاة والمرأة إلى السفينة . فأمر قائدهم أن تبقيا
فيها خادمتين .

ومرّت الأيام والفتاة كما هي .. لم تسوّها حياتها الجديدة
أكثر مما ساءتها حياتها السابقة ، فقد كانت في الأولى خادمة وفي
الثانية خادمة ، وما فتئت امرأة أبيها - رغم ما مر بها من كوارث
ومحن - تخزها بكلماتها اللاذعة التي تقطر سمّاً .

ولكن شيئاً جديداً قد طرأ عليها ... شيئاً لم تستطع أن تحدد
بالضبط إلى أين ينتهي بها ، إن كانت موقنة في نفسها أنه لن يؤدي
إلى خير ، ولكنها مع ذلك لم تستطع إلا قبوله فقد كان به نوع
من المتعة ، وإن كانت متعة يائسة ولذة وهمية خرافية .

هذا الشيء الذي طرأ عليها لم يكن سوى الحب ! ! ... أجل
لقد أحبت الفتاة ! .. وأحبت من ؟ . قائد السفينة وسيد
القرصان ! !

لقد كانت الفتاة تقول لنفسها إنها مخلوقة سخيفة بلهاء فقد كان
خيراً لها ما دامت قد عازمت على أن تشارك بقية الفتيات متعتهن ،
وأن تمتع نفسها بنشوة الحب ... كان خيراً لها والأمر كذلك ،
أن تكون معقولة في اختيارها فتكتفى بحب أحد الخدم أو البحارة ،
ممن يحتمل أن يبادلوها حباً بحب ، ولكن الأمر لم يكن بيدها ..
إذ لم يكن لها خيرة فيما فعلت .. لقد كان القدر يمعن في سخريته
منها !

ورغم أن حبها كان مثلاً لحب يائس ... فقد استطاع أن يبدد كثيراً من تلك الظلمات التي كانت تكتنفها ، وأن يذهب كثيراً من ذلك الحزن الذي يملأ قلبها ويعصف بنفسها ..

و ذات يوم جرح الرجل في معركة مع إحدى السفن و رقد على فراشه والدماء تسيل من جراحه ، وأحست الفتاة أن الدماء التي تقطر منه إنما تقطر من قلبها ، وبدأت في تمريضه والسهر على خدمته ، فلم يك يغمض لها جفن ، وكانت تبتهل إلى الله أن يحفظ حياته .. رغم أنها لم تكن تأمل منه حتى كلمة شكر .

وأخيراً أبلى الرجل مما ألم به ، وخرج على ظهر السفينة ذات ليلة يسير الهويناء ، وقد ساد حوله السكون وخيم الصمت ، ولكنه سمع همساً خفيفاً يحمله النسيم إلى أذنيه ، فاقترب من مصدره فإذا به يبصر الفتاة وقد جثت على قدميها ، ورفعت يديها إلى السماء ، وأخذت تتمتم بالدعاء .

ومس الرجل كتف الفتاة فانتفضت واقفة ، وخفق قلبها بشدة ، وسألها الرجل في رفق :

— ماذا تطالبين من الله ؟

— أن يحفظ من أحب .

— إذا فأنت تحيين ؟ !

وهزت الفتاة رأسها هزة خفيفة ، وصمت الرجل وبدأ عليه شرود ووجوم ، ثم قال وقد سبح ببصره في ظلمات الأفق :

- سأعيدك إلى بلدتك .. إلى من تحبين .. لقد كنت أود
أسألك شيئاً ، ولكنى لا أرى له معنى الآن .. لشد ما أغبط من
تحبين يا فتاة !

وبدا على الفتاة ذهول شديد وصمت الرجل برهة ثم أردف :
- كنت أود أن أسألك الزواج ، أنا أعلم أنكم تكرهون القرصان
وتعتبرونهم قوماً غير أشرف .. ولكنى كنت على استعداد لأن أترك
القرصنة وأتبعك حيث تشائين ، أما الآن فلا أظن هناك داعياً
لذلك .. سأعود بك غداً إلى بلدتك ...

وظنت الفتاة نفسها حالمة فأرادت أن تستمتع بالحلم حتى
آخره ، وأمسكت بيد الرجل وأنبأته أنها لا تود العودة ، ثم همست
له بكلمات قلائل جعلته يحتويها بين ذراعيه ويلهب وجهها بأنفاسه
ويصهر شفتيها بقبلاته .

وفى اليوم التالى رست السفينة على أقرب ميناء ، ونزل منها
الرجل تصحبه الفتاة ، ولم يحاول العودة إلى السفينة بعد ذلك ،
فقد صمم على أن يعيش مع زوجته رجلاً شريفاً .

وصحبت الفتاة امرأة أبيها فقد صفحت عنها وغفرت لها ، ولكن
القدر الساخر لم يكن قد صفح ولا غفر ... لقد مرت الأيام
فحملت الفتاة وأخذ صدرها فى النضج والامتلاء ، وفى ذلك الوقت
أصيبت المرأة بسرطان فى الثديها ، ولم يكن هناك يد من قطع ثديها
للابقاء على حياتها ، وأنقذت حياة المرأة ، ولكنها عاشت بقية
عمرها بلا ثدين .

بريق مخبرنا

لقد كنت فيما مضى لا أجسر على قولها
عشية السخريه ، ولكنى لا أظنك الآن تسخر
من مخلوقة بائدة هالكة كل ما بقى لها فى
الحياة ومضات كلمع البرق تضىء ثم تخبر .

كل إنسان لحظات مضبئة براقه .. يلمع ضوءها فى نفسه
فى حياة فتريه الحياة مشرقة وضاعة ، ويرى كل ما حوله يزهو فى
سناء عجيب لا يدرك كنهه ولا منبعه .. ويخيل إليه أنه ما من كائن
فى الكون إلا وقد مسه ذلك السحر الذى مسه .. فإذا بالدنيا كلها
قد سُخرت لمتعته كأن كل ما فى الطبيعة لم يخلق إلا لى يبعث
فى نفسه النشوة ويملاها بالنعيم .

وقد تذهب تلك اللحظات فيخبو ضوءها .. وينطفئ بريقها ..
ويأخذ الإنسان فى التعثر فى ظلمات الحياة المدلهمة وينظر للكون
فإذا به قد فرقته فنتته .. وبدا كالشجرة الذاوية قد تساقطت أوراقها
الخضراء البانعة بعد أن جفت وزهبت نضرتها ، ويظل الإنسان
يتخبط فى حلكة الطريق ، ثم ينهكه السير فيقف برهة يتلفت
حوله ، فإذا باللحظات البراقة التى فى حياته قد بدا منها بصيص
ضئيل وبقية من رفق .. عندئذ تطوف برأسه الذكرى فتعشه
وتشمله ، وتنفخ فيه من ضوءها الباهت قوة وأملا ، فيعاود السير .. وهو
يتلفت خلفه بين لحظه وأخرى ، ليتزود منها بغذائه كما تجتر الإبل

غذاءها المختزن ، كلما شعرت بالحاجة إليه فى الصحراء الجذباء
المقفرة عله يقيم أوده ويمكنه من السير حتى النهاية ، فلا يسقط
إعياء فى منتصف الطريق .

وصمت صاحبي برهة .. وأطرق برأسه ، وأخذ ينقر بأصبعه
على المنضدة الصغيرة . وقد شرد فكره وتاه بصره .
واضطجعت على المقعد ومددت ساقى على المنضدة ..
ونظرت إلى صاحبي وقد تملكنى العجب .

ترى أى ذكرى هذه التى تطوف برأسه كما تطوف السحب
السوداء بزرقة السماء فتجعلها قاتمة مظلمة .. أى لذة لديه فى هذه
الذكرى التى تجيش بنفسه .. فتملؤها باللوعة .

وقطعت جبل الصمت متسائلا :

— أغلب ظنى أن كل ما فى المسألة لا يعدو حادثة غرام فاشلة ..
وخير لك أن تتناساها ، حتى لاتنكأ القرح .

ونظر إلتى صاحبي من طرف عينيه وأشاح عنى بوجهه كأنى إبله
أو مجنون ثم استغرق فى إطراره وصمته .

وتركته وشأنه ، ثم أغمضت عيني ... ولكنه لم يطلق الصمت ،
فبدأ يتحدث وأخذ يقص قصته :

— كان أول ما أذكره فى هذه الحياة هو ذلك البيت الصغير الذى

تطله الأشجار من كل جانب .. وكانت الحياة يومئذ فى نظرى لا تعدو تلك الغابة الكثيفة الملتفة حول المنزل ، وكنت فى ذلك الوقت زعيم أطفال الناحية وشيخ صبيتهم ، ولم يكن هناك أحب إليّ من حشد فى جموع ، وتسليحهم بعضى على شكل بنادق وسيوف فأكون بهم جيشاً أخوض به غمار المعارك الطاحنة وأغزو بهم الدور المجاورة ، ثم أعود إلى بيتنا ظافراً منتصراً ، وقد وضعوا على هامتي أكاليل الغار .. حيث أجد والدتي فى انتظارى ، وقد كشرا عن أنيابهما فينتزعان أكاليل الغار ويطرحاني أرضاً ويسلباني كل ما أحرزت من فوز وانتصار « بعلقة ساخنة » أعود بعدها هزيلة ضعيفاً مطأطئ الهامة باكي العينين .

وكنت قد اخترت لى من بنات الناحية طفلة ، خلعت عليها لقب الإمارة ، تمهيداً لوضعها بجائني على عرش الناحية وأخذت أخصمها بالعطف والرعاية ، ولست أدري لم اخترت هذه الطفلة بالذات ... ولكن أغلب ظني أن اختياري لها يرجع إلى ثراء أبيها .. وإلى أن جيوبها كانت دائماً عامرة بالحلوى والدريهمات التي كانت تمنحنيها عن طيب خاطر .

وكانت هناك طفلة أخرى نحيلة هزيلة ، كثيرة الصمت والهدوء .. هي ابنة « نجار » الناحية .. وكانت تحاول أحياناً أن تشترك معنا فى لهونا . ولكنني كنت أطردها دائماً ، فبقدر ما كنت أعطي الأولى من حب وعطف وعناية ورعاية ... كنت أعطي الثانية

سخرية وازدراء وكرهاً وبغضاء ... وكنت لا أترك فرصة تسنح ،
حتى أعبر لها عن شعورى بالضرب المبرح والشتائم المقدعة .
وكانت المسكينة تعود إلى دارها حزينة باكية ، فتختفى برهة
ثم تعود إلينا وجلة خائفة الصفح والمغفرة .

وكثيراً ما كنت أشعر بالندم لما أسببه لها من ألم وحزن ولاسيما
عندما أبصر فى عينيها نظرات الاستكانة والخضوع وألمح فيهما
آيات الحب والعطف ، فأحاول أن أروض نفسى على حبها ، أو
على الأقل أمنعها من بغضها والتنكيل بها ، ولكنى كنت عبثاً
أحاول .. فقد كنت أستشعر اللذة فى ضربها .

ومرت الأيام لذيدة ممتعة .. لا شئ فيها سوى اللهو والعبث ،
حتى أخبرنا أبى ذات يوم أنه نقل من مقر عمله إلى بلدة بعيدة
ناحية .. ففكرنا طويلاً .. وأخيراً استقر رأى على أن تنتقل الأسرة
بأكملها إلى هذه البلدة .

وأغلقت البيت .. وحزمتنا أمتعتنا ... وذهبت أودع أصدقائى من
الصبية والبنات .. وكنت أتخيل أن رحيلى عنهم سيتركهم فى حزن
اليتامى واكتئاب الشكالى وأنهم سيودعوننى بالبكاء والنحيب ،
فصمت على أن أظهار بالجد والشجاعة وأن أخبرهم أننى سأعود
إليهم عن قريب .

ولكنى عجبت إذ لم أجد هناك من يودعنى ، وعلمت أن صبياً
غيرى قد تولى قيادتهم بعدى ، وأن أميرتى قد أصبحت أميرته ...

وأنهم قد انصرفوا جميعاً لتكريمه والتهنأ له ... وأنه قد خرج بهم
فى أول معاركه وغزواته فتبعوه وتركونى دون أن يقولوا لى كلمة
وداع واحدة .

وتلفت حولى فلن أجد سوى الصبية النحيفة النحيلة « ابنة
التجار » وقد وقفت تنظر إلى فى ذلة ومسكنة .

وتملكنى الغيظ وامتلاأت نفسى بالضيق ، فقد شعرت أن كرامتى
قد خدشت وأن صولتى قد ضاعت .

ورأيت الطفلة تتقدم إلى مطأطئة الرأس ، وقد بدا عليها التردد
وهى تحمل فى يدها لفافة صغيرة .. وفى صمت وسكون دفعت
إلى باللفافة ... ولكنى كنت نائراً حانقاً .. وزاد من حنقى أنه لم
يأبه لى من كل هؤلاء الأصدقاء إلا تلك الطفلة الحقيره الذليلة التى
لا أحس لها سوى البغض .

وفى ثورة من الغضب أمسكت باللفافة وقذفت بها فى وجه
الصبية وقلت لها حانقاً :

إغربى عن وجهى .. لا أريد شيئاً من أحد .

ولمحت فى عينى الصبية دمعين حبيستين .. ثم أعطتنى
ظهرها ، وولت هاربة .

ومرّت بضع سنوات قبل أن نعود مرة أخرى إلى دارنا المحبوبة ،

ولم يحدث فى تلك السنوات ما يستحق الذكر فقد مضت طويلة مملة ، ولم يكن فى البلدة الجديدة ما يبعث على التسلية ، قضيت تلك السنين الطوال بين البيت والمدرسة .

وأخيراً عدنا مرة ثانية إلى دارنا المحبوبة ، فإذا بكل ما غادرناه كما هو كأَن الزمن هناك كان فى غفلة أو سكون .

نظرت إلى المكان ، فعرتنى إذ ذاك هزة وانتابتنى نشوة فقد رأيت الذهن يرجع القهقرى إلى أيام خلت ملؤها المتعة واللهو .. المتعة الطاهرة التى لا يعقبها ندم .. واللهو البرىء الذى لا يتبعه حسرة ولا أسف .

رأيت المكان بأشجاره الظليلة الخضراء اليانعة ، ورأيت حفر الخنادق التى كنا نلهو بها ، والحائط القديم الذى كنا نتحصن خلفه .

كان كل شيء كما هو لم تمسسه يد التغيير والتبديل .. حتى لكأنى ما غادرت المكان لحظة ، وبحثت عن الرفاق ، فقد كنت أشعر باللهفة عليهم ، وكان يخيّل إلى من فرط ما وجدت المكان على حاله أننى سأجدهم أيضاً كما خلفتهم صبية صغاراً يملؤهم المرح والبهجة .. ولكنى كنت جد خاطيء .. فقد رأيت أن الزمن الذى غفل عن المكان لم يغفل عن أصحابه ويقدر ما كان المكان كما هو ، كان الأصحاب قد تبدلوا وتغيروا بل اختلفوا عما كانوا عليه كل الاختلاف ، حتى أصبحوا يكاد ينكر أحدهم الآخر . فقد

ذهب عنهم المرح واللهم ، وتفرق شملهم فاضى كل إلى حال
سبيله .

ولكن امرأً واحداً بقى على حاله ، حتى خيل إلى أنه قطعة من
المكان كاللدور والأشجار ، وأنه لا يمت بصلة إلى بنى الإنسان الذين
غيرهم كر الأيام ، وبدلهم مرّ الزمان ، ولم يكن ذلك المرء سوى
الصبية النحيلة الهزيلة « ابنة النجار » .

وقد تكون الصبية نمت فأصبحت فتاة مكتملة الأنوثة ومع ذلك
فقد خيل إلى أنى لم أفارقها إلا بالأمس ، وتراءت لى صورتها وهى
تمد يدها باللفافة فى خضوع وخشوع وذلة ومسكنة ، وتذكرت
حين قذفت باللفافة فى وجهها ، ثم تندى عينيها المليئين بالدموع
والعطف ، والحب والركة ، فكأنى ما فارقتها قط ، وأقبلت على
الفتاة تلقانى بوجه يبرق بالسرور ونفس ملؤها السعادة .

ومرة أخرى غمرنى الشعور بالخذلان والخيبة حين رأيت أن
الكل قد نسينى عدا تلك الفتاة المسكينة ، ولكنى فى هذه المرة
كنت أكثر عقلا وأقل حمقا ، فلم أصب على الفتاة جام غضبى ،
ولم أحملها ذنوب الآخرين . وألنت لها جانبى فعطفت عليها
ودهشت لها .

وعلمنا بعد ذلك أن الفتاة قد مات أبرها ، وأنها فى حال من
الفقر تبعث على الأسى والأسف .. فرق أبواى لحالها ، وصممتا
على إيوائها ... نظير أن تقوم بخدمة جدتى العجوز وقضاء
حاجاتها .

وعاشت الفتاة معنا فى الدار أشبه ما تكون بخادمة .. وظلت دائماً كعهدى بها ، طيبة القلب ، خاشعة ذلولا ، لا يكاد يسمع لها فى البيت حس ولا صوت .. كأنها قطعة من الأثاث ، أو شبح من الأشباح .. وكانت من طول سكونها وهدوئها تمر بى الأيام وأنا لا أكاد أحس أن لها وجوداً فى الدار .

وكانت نظرات الفتاة تذكرنى دائماً بالسنين الخالية حينما كنت أمعن فى ضربها أو سبها فتصرف عنى باكية ثم تعود بعد بضعة أيام مطأطئة الرأس ملء عينيها الاستغفار والمسكنة فقد كنت لا أكاد أنظر إليها الآن ، إلا وأقرأ فى عينيها نفس النظرات ، حتى لكأننى مازلت أولمها وأمعن فى تعذيبها . وكانت تغيظنى منها هذه النظرات لأننى لم أك أعلم ماذا تريد بها ، ولم أستطع أن التمس لها العذر فى توجيه هذه النظرات إلى الآن وقد كفت عن أذاها وإيلامها .

وفى ذات يوم غادرت البيت نائراً غاضباً ، فقد رفض أبى إعطائى ما طلبت من نقود ، وعدت فى المساء ، ثم بت ليلتى دون أن أناطب أحداً ، واستيقظت فى الصباح ، فإذا بضجيج فى الدار لم أعتده ، وسمعت أصواتاً اختلط بعضها ببعض فنهضت لأرى ما حدث .

وأصابتنى الدهشة عندما علمت أن بعض الحلى قد اختفت ، وأن المسكينة قد أقرت بأنها هى السارقة .

وحاولنا عبثاً أن نعرف أين ذهبت الحلى ، ووعدناها أننا سنغفر

عنها إن هي ردتها ، وسنغفر لها خطيئتها. على ألا تعود إلى مثلها مرة أخرى ، ولكنها لم تجب إلا بالصمت .

وزاد كرهى للفتاه واختقارى لها عندما علمت أنها تخفى وراء مظهرها الهادى الرقيق نفساً سارقة شريرة .

وأخير لم نجد بداً من أن نبلغ الشرطة ، فسيقّت الفتاة إلى السجن وأودعت غياهبه .

ومرت الأيام بعد ذلك ، ونسينا أمر الفتاة ، وفى ذات صباح افتقدت أُمى بعض حاجيات تافهة فلم تجدها وأطالت البحث والتنقيب دون جدوى .

وأخيراً حدث ما ملأنا عجباً ، فبدلاً من أن تجد أُمى ما افتقدته من أشياء تافهة ، عثرت على الحلى المفقودة التى أقرت الفتاة بسرقتها .

وعجبت أشد العجب ولم أعلم ما حمل الفتاة على أن تلقى بنفسها إلى التهلكة ، وسرعان ما ذهبت إلى الشرطة أبلغها الخبر ، وأعلن لها براءة الفتاة .

وذهبت إلى السجن ، وبعد لحظة قصيرة ضمنتى والفتاة حجرًا من حجرات ذلك السجن المظلم الرطب .

رأيت الفتاة مسجاة على فراش قذر.. وأخبرونى أنها مريضة ، وكانت مغمضة العينين ، شديدة الشحوب ، وقد برزت عظام وجهها من فرط الهزال .

وربت برفق على يدها ، ففتحت عينيها .. وما كادت تبصرنى
حتى صدرت منها صيحة فرح لم تستطع كتمانها ، ولمع فى عينيها
الغائرتين بريق السرور المشوب بالذهول والدهش وصاحت فى
صوت مبحوح :

- أحقاً أنت ؟

وساد الصمت بيننا لحظة ثم سألتها السؤال الذى كان يملأ
نفسى حيرة وعجباً :

- ما الذى حدا بك إلى الكذب فزعمت أنك سارقة الحلى ؟

وترددت الفتاة برهة ثم قالت فى صوت خفيض :

- لم أرد أن أراك فى مأزق حرج .

- أنا ؟ !

- نعم . لقد كنت أعلم أنك فى حاجة إلى نقود فأثرت لنفسى
تحمل عار السرقة حتى أبعد عنك الريب والظنون .

- أو تظنين أننى السارق ؟

- إما أنت .. وإما أنا !

- ياللعجب ! لا أنت ولا أنا .. فقد وجدنا الحلى ، ولم يكن
هناك سارق ، وقد ألقيت بنفسك فى السجن ولقيت العذاب دون
أى ميرر .

وكنت أنتظر أن يملأ السرور نفس الفتاة .. ولكن وجدت

سحابة من الحزن قد خيمت على وجهها ، ورأيتها تشير إلى أن
أجلس بجوارها ، وأخذت الفتاة تقول في صوت هامس :

- إننى مخلوقة تعدة لا أمل لها فى هذه الحياة .. إننى سأقول
لك ما أقول ، لا شئ إلا لشعورى بقرب النهاية ، ولولا ذلك لما
جرؤت على قوله ، فلا إخالك تأبى على مخلوقة على وشك الفناء
أن تمتع لحظات بما أبته عليها الحياة .. أحبك ... ! ولشد ما
يسعدنى أن أقول لك أنى أحبك .. فقد كنت فيما مضى لا أجسر
على قولها خشية السخرية .. ولكنى لا أظنك الآن تسخر من
مخلوقة بائدة هالكة كل ما بقى لها فى الحياة ومضات كليم البرق
تضئ ثم تخبو ، فكانها ما كانت .. أنا لا أريد منك شيئاً لأننى
لا أطمع فى شئ مطلقاً ، كل ما أريده منك هو ألا يأخذك الغضب
كسابق غضبك منى بل ، تصبر على سخافة قولى وتحتمله ، حتى
أغادر تلك الحياة البغيضة إلى نفسى !

ولو قال لى قائل فى سابق الزمن إننى سأعشق هذه الفتاة لرميته
بالجنون .. ولكننى فى هذه اللحظة شعرت أننى لم أحب فى حياتى
مخلوقة قدر ما أحببت هذه المخلوقة اليائسة البائسة .

وعدت بالفتاة إلى البيت وأرحتها فى فراشى وأحضرت لها طبيب
الناحية ، ففحصها وطمأننى على حياتها .

وشد ما أسعدنى أن أعلم أن الفتاة قد باتت آمنة ، وأن حياتها
لم تعد فى خطر ، ودخلت عليها متهلل الوجه وأمسكت بيدها

فى يدى وأنبأتها أن الطيب قد قال إنها ستنجو وأنى سأعوض لها كل ما مضى من شقاء ، وسأكفر عن كل السيئات .

ومرت بى بعد ذلك اللحظات المضيئة البراقة ، فكنت أجلس إليها فى فراشها ، وقد غمرنى الحب فأرانى كل ما فى الكون مزدهراً منيراً . وكل ما فى الحياة ضاحكاً يفيض بالنعيم والسرور . وفى ذات يوم وجدت الفتاة قد ازداد شحوبها وسمعتها تهمس فى أذنى :

- لقد حلت النهاية ! .

وأصابنى الفرع وقلت مشدوها :

- لقد قال الطيب إنك ستنجين ،

فهزت رأسها ببطء وإعياء وهمست :

- الطيب لا يدرى .

وطلبت منى أن أقرب منها ثم تمتمت فى أذنى :

- كم أنا شاكرة لك جميل صنيعك .. لقد أعطيتنى فى أيام ما

افتقدته فى سنوات طوال .. لست حزينة لأنى سأفارق الحياة ، فإنى لم أكن أطعم أن أنال فيها أكثر مما أخذت .. لقد أصبت كل ما كنت أحلم به من متعة ونعيم ، وحرام على أن أطعم فى أكثر من ذلك .

وذهبت الفتاة وانطفأ سراج حياتها .. فزال البريق ، وغبا

الصوء .. وشعرت أن الحياة بعدها قد أصبحت أمام عيني .. حالكة
الظلمة ، شديدة الوحشة .

وصمت صاحبي ، ورأيت وجهه يفيض باللوعة والأسى ،
ولمحت في عينيه دمعة تترقرق .. فقلت :
- لا عليك يا بني هكذا الإنسان دائماً . يزهد فيما منح ،
ويكي على ما ضاع .

هذاهوالمحبة

وأبصرت بشبهه فى الظلمة وقد دفن رأسه
بين كفيه ، ومسته مساً خفياً فرفع نظره إليها ،
ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، ولا حرك مرآها منه
سكناً

لا ياسيدى .. هذا مبلغ زهيد جداً .. أنا لست لصاً حتى
لا أبيعك إياها بمثل تلك الدريهمات التافهة التى تعرضها
على .

- أنت وشأنك .. فلست أرانى شديد الحاجة إلى سلعتك ..
فهى سلعة بائرة ، وسأخذها منك « على عيها » .

- ولكنك تبخسها حقها .. حتى مع هذا العيب ! ! والله لقد
ابتعت بالأمس « نعجة » بأضعاف هذا الثمن أفلا تساويها بنعجة ؟
- نعجة سليمة .. خير من امرأة عرجاء .. لن أدفع أكثر مما
قلت لك .

- لنفرض يا سيدى .. أنها ثلاثة أرباع امرأة ، أو حتى نصف
امرأة ... أفلا يستحق هذا النصف عشرة أمثال تلك الدريهمات التى
تعرضها ... ألا تظن أن هذا الوجه والعنق .. بل وهذا الصدر ؟ .
ثم نهض الرجل وجذب ثوب الفتاة فكشف عن نصفها
الأعلى ... ثم أردف قائلاً :

- إن الصدر وحده يساوى أضعاف ذلك المبالغ الذى تساومنى فيه .. هب يا سيدى أننى لا أبيعك إلا النصف الأعلى ، ولنخرج الساق الباقية من الحساب ... ألا ترى أنك قد غبنتنى غبناً شديداً .

ونظر الرجل الآخر إلى الفتاة نظرة فاحصة وقد تهدل ثوبها وبدا صدرها فى استدارة وبروز كأنها تمثال أبدع صانعه ... وبدت بشرتها نقية صافية فى بياض مشوب بحمرة خفيفة .. فلم يستطع الرجل أن يقاوم طويلا ، وأنساه ذلك الصدر الذى وثب أمامه فى ثورة وتحد أن بالفتاة عيباً آخر فلانت عريكته ، ولم تمض هنيهة حتى كانت الصفقة قد تمت ، وغادر الرجل السوق تتبعه بضاعته .. ذات الساق الواحدة ، وقد أخذت تقرع أرض الطريق بساقها الخشبية قرعات منتظمة متوالية .

كانت السوق فى إحدى بلاد أوروبا الوسطى ، وفى تلك الأزمنة الغابرة التى كانت تعرض فيها الأجساد البشرية للبيع كأنها قطعان ماشية ، وكان الرجل الذى ابتاع الفتاة صاحب إحدى الفرق التمثيلية المتنقلة .. التى حطت رحالها خارج المدينة وأخذت تستعد لإقامة مسرحها ونصب خيامها .

وعندما عاد الرجل إلى مضرب فرقته لم يستطع القوم أن يخفوا دهشتهم... أو يمنعوا ذلك التغامز والهمس الذى سرى بينهم .

ترى ماذا أعجب الرجل من تلك الفتاة العرجاء ؟ . وماذا تراه ينوى أن يفعل بها ؟ . أتراه قد عزم على أن يشنف آذان الجماهير

بتلك الطرقات المفزعة التى تصدرها ساقها الخشبية فى ذهابها وجيئتها ؟ ! .

ولم تسلم الفتاة من سخرتهم اللاذعة فى بضعة الأيام الأولى التى حلت فيها بينهم ، ولكن القوم ما لبثوا أن أنسوا إليها بعد ذلك .. فقد كانت لطيفة العشرة حلوة الفكاهة ، وكانت بنفسها عذوبة ورقة ، وكانت على شىء كثير من جمال ، ولولا ذلك العرج الذى بها لم تردد القوم فى أن يظهرها على المسرح ويشركوها تمثيلهم ورقصهم .

ومع ذلك فقد أثبتت الفتاة أنها يمكن أن تؤدى للقوم كثيراً من تلك الأعمال النافهة التى لا يستغنون عنها ... كترقيع الثياب ورتقها ومساعدة الممثلات والراقصات على ارتداء ملابسهن وغير ذلك من الأعمال التى لا تمنعها ساقها الخشبية من أن تؤديها .

وعندما كانت الفتاة تخلو إلى نفسها أو تقف بين الكواليس لمشاهدة الممثلات وقد أخذن ينشين فوق المسرح والجماهير ترمقهن بأعين الإعجاب واللهفة وتلهب أيديها تصفيقاً لهن .. كانت تتمنى لو استطاعت أن تفعل كما يفعلن ، وأن تعتلى خشبة المسرح ولو مرة واحدة حتى تستطيع أن تنعم بذلك الهاتف والإعجاب ، ولكنها كانت تعلم أن أمنيته عسيرة التحقيق ، وأن تلك الساق الخشبية التى تثير بها الضجيج أينما حلت ستجعلها مبعث شفقة بدلا من أن تكون موضع تقدير وإعجاب .. بل من

يدرى ربما قابليها الجمهور بالصفير والسخرية ، وأعطاهما ما تستحق من مهانة وازدراء .

وبدأت الفتاة تحس بالحزن يتطرق إلى نفسها ، وتشعر بمركب النقص الذى بها وهى التى مأساها قبل ذلك الوقت أن تكون بساق واحدة أو حتى بلا ساقين ، فما أحست قط أن ساقها الخشبية قد حرمتها من أمنية تتطلع إليها . لأنها فى الواقع لم تكن لها أية أمنية ، ولكنها الآن تحس أنها تقف عقبة فى سبيل حلمها الجميل وهو اعتلاء خشبة المسرح .

وأخفت الفتاة ما بنفسها خشية أن يسخر منها القوم ، ولكنها لم تستطيع أن تمنع نفسها من التسلل فى ظلمات الليل والقوم رقاد ، فتحتلي خشبة المسرح وتنهمك فى التمثيل وساقها تقرر الأرض قرعا مفزعا فى ذلك السكون الموحش والصمت المخيف ، وهى تتوهم أن أكف الجماهير يكاد يدميها التصفيق ، وحناجرهم تكاد تبوح من فرط الهتاف

واستطاعت الفتاة أن تجد العزاء بتلك الطريقة الشاذة ، فأخذت تمتع نفسها فى الظلمات ما حرماها النور إياه .. حتى نشأ بينها وبين المقاعد الخالية نوع من الود والتفاهم .

واستمرت الفتاة فى عمليتها العجيبة ، وفى كل ليلة تشتد لهفتها على التمثيل .. حتى كانت ذات ليلة وقد أخذت تعدو فوق المسرح منهمكة فى أداء أحد الأدوار فأحدث عدوها ضجيجاً أيقظ

الحارس ، فهب من نومه مذعوراً وقد ظن أن لصوصاً يحاولون السرقه فأوقد مشعله ، وقام يتحسس طريقه نحو مصدر الضجيج فأدهشه أن يرى العرجاء وقد تسمرت فوق خشبة المسرح ، وسألها عما تفعله فى هذا الوقت من الليل .. فلم تحر الفتاة جواباً ، وأصابها الارتباك والذعر فظن بها شراً ، وأمسكها من يدها بعنف ، وهم يسوقها إلى صاحب الفرقة . ولكنها بكت واستعطفت فوعدها بإطلاق سبيلها وألا ييوح بأمرها إذا صدقته القول وأنباته لاي أمر كان اعتلاؤها المسرح فى جنح الظلام ، وعلام ذلك الضجيج الذى كانت تحدثه بساقها ؟

وأطرقت الفتاة ثم نظرت إليه من خلال دمعين تلمعات فى ضوء المشعل الذى حمله فى يده ، وبدأت حديثها فى صوت مرتجف وأفضت إليه بجلية الأمر ! ! !

وأصابه عجب شديد .. فما خطر على باله أن مثل ذلك الأمر يمكن حدوثه ، وأحس بعطف شديد نحو الفتاة وربت عليها برفق وسألها لِمَ لم تنبهه قبل الآن حتى كان يقبل على مشاهدتها ، ويضئ لها الأنوار .. فأجابته بأنها تخشى السخرية ، وأنها تكتفى بإرضاء نفسها بالتمثيل أمام المقاعد الخشبية لأنها تحس بالاطمئنان إليها ، وأمسك الفتى يدها وأكد لها أنه لايسره شئ كمشاهدته تمثيلها وأنه لن يسخر منها .

وأضاء الفتى أنوار المسرح وأرخى الستر ثم دق بقدمه ثلاث

دقات إيداناً بابتداء التمثيل ثم رفع الستار ببطء وقفز بسرعة فاتخذ مكانه فى المقاعد الأمامية وأخذ يصفق بشدة .

وأحسست الفتاة بشئ من الخجل فى بادئ الأمر فهى لم تتعود إلا التمثيل أمام المقاعد الخالية ، والمسرح قد شملته ظلمة شديدة .. أما أن تمثل فى وسط هذه الأضواء وأمام « هذا » الجمهور فذلك مالا عهد لها به .

وانحنت فى ارتباك شديد ثم بدأت التمثيل ، ولم تكد تمضى برهة قصيرة حتى أخذ الخجل يتطاير من نفسها وانهمكت فى أداء دورها أنهماكاً شديداً ، ولم تكد تنتهى منه حتى كان الفتى يضعج بالهتاف والتصفيق .. ثم قفز من مكانه وأرخى الستار وعاد بسرعة إلى مكانه يواصل التصفيق طالباً الاستعادة ، ثم قفز مرة مرة أخرى فرفع الستار ، وقفزة أخرى أعادته إلى مكانه .

وأخيراً انتهت الفتاة من التمثيل فودعها الفتى بعد أن قبل يدها وأكد لها أنه سينتظرها فى الليلة القادمة .

وعادت الفتاة إلى حجرتها وقد غمرها فيض من السعادة لم تحس بمثله من قبل .

وفى الليلة التالية عندما تسلفت إلى المسرح ، وجدت الفتى قد أعد لها باقة من الزهور ، كا أعد لها غرفة لتغير ثيابها فيها وترتدى الملابس الملائمة للدور الذى ستقوم به .

ومرت الأيام وكلاهما مواظب على عمله تمام المواظبة ، دون

أن يحس أى منهما بشئ من الملل .. بل على النقيض من ذلك
كانا ينتظران تلك الساعة بصبر فارغ ... فلم يكن هناك أحب إلى
نفسها من التسلل إلى المسرح بعد رقود القوم فنبداً هى التمثيل ويبدأ
هو التصفيق والإعجاب .

ولا نظنه شيئاً عجباً .. إذا انتهى الأمر بهذا المسرح العجيب ..
بأن ينصب الهوى شراكه حول مثلته الوحيدة ومشاهده الوحيد ..
فإذا بكل منهما صب مولع يتردى فى هوى صاحبه .

وهكذا أخذ التمثيل ينتهى كل ليلة بلقاء جميل .. لقاء للأبدى ،
يعت في جسديهما رجفة ، ولقاء للعيون ، يعت في رأسيهما
نشوة ، ولقاء للشفاه يذيق كلا منهما من المتعة ما ينسيه دنياه .

وفى ذات يوم علمت الفتاة من صاحبة لها أن فى المدينة رجلا
اختص فى صنع الأرجل الصناعية ، وأن الرجل قد اشتهر بمهارته
الفائقة ، فما من أعرج صنع له ساقاً إلا وبدت كأنها ساق طبيعية
وذهبت عنه كل مظاهر العرج حتى لا يكاد المرء يميز قط بينه وبين
ذى الساقين السليمتين .

ونفذت هذه الكلمات إلى قلب الفتاة ، واخذت تظن فى اذنيها
طنيناً عجيباً .. أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً ؟ .. أيمكن أن
تذهب عنها مظاهر العرج وتبدو كأنها سليمة الساقين ؟ . هذا شئ
لا تستطيع أن تصدقه .. فلو صح هذا الأمر .. لأمكنها أن تظهر

على المسرح أمام الجماهير ... فتحقق تلك الأمنية التي تعجيش في صدرها .

وفي ذات صباح اكتشف القوم أن الفتاة قد اختفت فجأة ولم يستطع أحد منهم أن يعرف سر اختفائها حتى ولا صاحبها حارس المسرح الذي كاد يجن جنونه عندما انتظر الفتاة كما تعود أن ينتظرها في جنح الليل فلم تأت .

وحاول الفتى البحث عنها فذهبت محاولاته أدراج الرياح ، ومرت عليه الليالي الطويلة السوداء وهو ينتظرها كل ليلة كما تعود أن ينتظرها ، وقد يمر عليه الليل طوله وهو جالس في مقعده يرقب المسرح دون أن يغمض له جفن ، وقد أرهف أذنيه على يسمع طرقات ساقها الخشبية التي كان يميزها بها عن بعد .

وأخيراً ظهرت العرجاء .. فقد عادت مرة ثانية ، ولكنها لم تعد بعد عرجاء .. لقد أصبحت مخلوقة أخرى !

أقبلت سليمة الساقين وقد بدا قوامها في اعتدال ورشاقة ، ولم يعد عرج ساقها يلهمي أنظار المرء عن جمال وجهها فبدت ساحرة فاتنة ... لقد ذهبت إلى صانع السيقان فحقق لها تلك الأمنية التي كانت أحلاماً وأوهاماً .

ولم يطل الوقت بالفتاة حتى تحققت الأمنية التالية .. فاعتلت المسرح أمام الجماهير في بضعة أدوار ثانوية .. ثم أخذت تتدرج بسرعة عجيبة .. حتى انتهى الأمر بها بعد فترة قصيرة إلى أن أضحت أولى الممثلات .

ورأى الفتى أن هوة قد قامت بينه وبين الفتاة .. فقد أحس منذ رآها بعد أن نزعت تلك الساق الخشبية ، أنه لم يعد يشعر لها بذلك الحب الذى كان يتأجج فى صدره ولم يعد يحس تلك اللهفة التى كانت تدفعه دائماً إلى أن يحتويها بين ذراعيه ، لقد كان يحبها على علاقتها .. لقد كان يحب ذلك العرج الذى بها ، وكانت تطربه طرقات ساقها الخشبية ، ولكنها الآن قد أصبحت شيئاً آخر .. شيئاً غريباً عنه .

ونأى الفتى بنفسه عنها . ولم يكن ذلك بالشئ العسير عليه .. فقد شغلها هى الأخرى ذلك النصر البراق الذى أحرزته وتلك الوجوه المعجبة التى التفت حولها .. حتى ذهبت ذات ليلة إلى فراشها متعبة الجسد ، وما زال رنين التصفيق يدوى فى أذنيها ، ولكنها لم تكن تحس له تلك المتعة التى كانت تتخيلها ، وذكرت تلك الليلة التى سمعت فيه تصفيق أول يدين صفقتا لها ، وذكرت تلك السعادة التى غمرتها وقتئذ وأحست بالحنين لصاحبها ، فتركت فراشها وتسللت إلى المسرح المظلم ، ثم اتجهت إلى حيث تعودا أن يلتقيا ... فأبصرت بشبحه فى الظلمة وقد دفن رأسه بين كفيه ، ومستته مساً خفيفاً فرفع نظره إليها ؛ ولكنه لم ينبس ببنت شفة ولا حرك مرآها منه ساكناً ، ودهشت الفتاة من ذلك الجمود الذى بدا عليه ، ولكنه أنبأها فى هدوء أنها لم تعد تلك الفتاة التى أحبها من قبل ، وإنما هى فتاة أخرى غريبة عنه ، وأن صاحبه الأولى قد ذهبت إلى غير عودة .

وغادر الفتى المكان فى صمت وإطراق وعادت الفتاة إلى حجرتها مكتبة واستلقت على فراشها برهة ثم قفزت ومدت يدها إلى ساقها الصناعية ، فنزعتها وحطمتها شظايا ثم رفعت الساق الخشبية القديمة الملقاة فى ركن الغرفة فوضعتها مكانها .

وبعد برهة سمع الفتى صوتاً عجيباً ، جعله يرتجف من قمة رأسه إلى أخمص قدمه .. أترأه واهماً ، أترى هذا الصوت الحبيب إلى أذنيه ، صدى للذكريات أم هو حقيقة ؟

واقترب الصوت .. صوت طرقات الساق الخشبية .. وظل يقترب ويتقرب ، حتى أبصر بصاحبه أخيراً ، وفى مشيتها عرجها القديم .

وفى اليوم التالى ففر القوم من الدهشة أفواههم عندما أبصروا الفتاة وقد عادت إلى ساقها الخشبية ، وإلى سابق أعمالها التافهة ، فلم يروها تعتلى خشبة المسرح بعد ذلك قط !!

ولكن لو فكر أحد منهم فى الاستيقاظ فى جنح الليل والكل رقاد يغطون فى نومهم ، لأبصر بالفتاة العرجاء ، وقد انهمكت فى التمثيل على خشبة المسرح ، وأخذت تدق أرضه بساقها الخشبية ، ولأبصر أحد المقاعد وقد جلس عليه حارس المسرح ، وقد التهب يده من التصفيق ؟

ولو سألتى حيثذ .. أهؤلاء مجانين ؟

لقلت له : أبداً .. هذا هو الحب !! !

المؤلف

| | |
|--------------------|----------------------|
| (قصص قصيرة ١٩٤٧) | اطياف . . . |
| (رواية ١٩٤٧) | نائب عزرائيل . . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | اثنتا عشرة امرأة . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | خبيايا الصدور . . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٨) | يا أمة ضحككت . . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | اثنتا عشر رجلا . |
| (رواية ١٩٤٩) | أرض النفاق . . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | فى موكب الهوى . . |
| (قصص قصيرة ١٩٤٩) | من العالم المجهول . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | هذه النفوس . . |
| (رواية ١٩٥٠) | أنى راحلة . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | مبكى العشاق . . |
| | بين أبو الريش وجنيبة |
| (قصص قصيرة ١٩٥٠) | ناهيش . . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | أغنيات . . . |
| (مسرحية ١٩٥١) | أم رتيبة . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | هذا هو الحب . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥١) | صور طبق الأصل . |
| (رواية ١٩٥٢) | بين الأطلال . . |
| (رواية ١٩٥٢) | السقامات . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | سمار اللبالي . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | الشيخ زعرب . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٢) | نفحة من الإيمان . |
| (مسرحية ١٩٥٢) | وراء الستار . . |
| (قصص قصيرة ١٩٥٣) | ست نساء وستة رجال |
| (قصص قصيرة ١٩٥٣) | هذه الحياة |

| | | |
|----------|----------------|---------------------|
| (١٩٥٢) | رواية | البحث عن جسد . |
| (١٩٥٣) | مسرحية | جمعية قتل الزوجات |
| (١٩٥٣) | رواية | غديتك يا ليلي . |
| (١٩٥٣) | قصص قصيرة | ليلة خمرة . |
| (١٩٥٣) | قصص قصيرة | همسة عابرة . |
| (١٩٥٤) | رواية فى جزأين | رد قلبي . |
| (١٩٥٥) | قصص قصيرة | ليال ودموع . |
| (١٩٥٦) | رواية | طريق العودة . |
| (١٩٥٧) | مقالات | أيام تمر . |
| (١٩٥٨) | مقالات | من حياتي . |
| (١٩٥٩) | مقالات | لطمات ولثمات . |
| (١٩٦٠) | رواية فى جزأين | نادية . |
| (١٩٦١) | رواية فى جزأين | جفت الدموع . |
| (١٩٦١) | مقالات | أيام مشرقة . |
| (١٩٦١) | مقالات | أيام وتكريات . |
| (١٩٦٢) | مقالات | أيام من عمري . |
| (١٩٦٤) | رواية فى جزأين | ليل له آخر . |
| (١٩٦٦) | مسرحية | أقوى من الزمن . |
| (١٩٦٩) | رواية فى جزأين | نحن لا نزرع الشوك |
| (١٩٧٠) | رواية | لست وحدك . |
| (١٩٧٠) | مقالات | من وراء القيم . |
| (١٩٧١) | مقالات | أيام عبد الناصر . |
| (١٩٧١) | رواية | ابتسامه على شفقيه |
| (١٩٧١) | رحلات | طائر بين المحيطين . |
| (١٩٧٣) | قصة | العمر لحظة . |

رقم الايداع ٨٧/٤٠١٣

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الإسكندرية

مكتبة مصر
٢ شارع كائن صدقي - البغالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وفزارة